تحديات ومواقف

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٥٩٢ /٧/2013)

٢١١
السيد، محمد حمدان
تحديات ومواقف/ محمد حمدان السيد. _ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، 2014.
(١٦٠) ص
ر.أ: (٢٥٩٢ /٧ /2013).
الواصفات: / الثقافة الإسلامية/ / الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك **ISBN** ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-١٧٦-٨

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

تحديات ومواقف

محمد السيد




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

ضمني إلى حنان حضنك أيها الكتاب العزيز
أنت الحقيقة دامغة في حروب نورانية
تقود الضياء هدية.. رحمة مصنوعة على عين ربي
أشواقاً لأخرى هي الجنان ممتدة على مساحة
السماوات والأراضين..
فإلى كل من اشتهى نفحة من كلمات هذا القرآن
إلى كل من كرس حياته لحروفه المفعمة بكل هداية
وكل قويم من حياة الإنسان على الأرض

إلى كل إنسان أراد لهذه الدنيا أن تكون
مكاناً آمناً..
تصل بالبشر إلى تعايش بلا هيمنة
بلا تسلط، بلا استكبار، بلا محاولة لمحو
الآخر، أو استضعافه، أو تهميشه أو
إقصائه، أو استغفاله، أو العدوان على
خصوصياته وهويته وثرواته وحياته

إلى كل هؤلاء أهدي كلماتي في هذه
السلسلة من الكلمات الهادفة الكاشفة
المصارحة، الناصحة
لعلنا نكون على هدىٍ نستحق به نعمة
هذه الحياة التي وهبها الخالق لنا

رحمة وشراكة وعيشاً بسلام، بعيداً عن
الاستيراد والتقليد الببغاوي، الذي يحول إنساننا إلى مجرد تابع ذليل...!

المؤلف

محمد السيد



مقدمة

قال رسول الله ﷺ:
العصبية: «أن تعين قومك على الظلم».
وقال ﷺ: «الدين النصيحة».
= = = = = =

إنها كلمات لهذا الزمان، فقد كانت عنوان الزمان المنصرم، وهي تاج يجب أن تُزين عرف الزمان القادم. فمنذ كان قدر المخلوق البشري أن يمر في هذه الدنيا ولو لفواق ناقة، وهو يتوجع من مضاجعة الضياع إلا من رحم ربي.

وليس الذي بنا من تلك المضاجعة الفاجعة سوى أوهاق من كسب أيدينا: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس».

المسافة التي بين الناس وبين أن تكون حياتهم آمنة لا تتعدى أن ترفرف أجنحتهم منسحبة من قواقع الانصياع لهمهمات النفوس الأمارة، ووسوات السماعين لدندنات تحاول الاستيلاء على العقول والقلوب المتبرجة للغزو، متصدية له بتقليد عجيب، وبتبعية غاية في الهيام بفكر الآخر، دون انتقاد ولا استيعاب فهي تباريح من أغرار لا جذور لهم، ولا انتماء فيهتدوا..! فهم كما وصف ذو الرمة حاله ببيت من الشعر بليغ معبر:

أخط وأمحو الخط ثم أعيده

بكفيّ، والغربان حولي وقع

إن أوضاعنا في حالة ارتباك وتردد، وزوغان عن الهدى الذي جلب هذه الأمة لتكون شاخصة في مواعيد الأمم وحضورها الألمعي، قائدة فذة حملت على أكتافها أثقال أوقات القرون الطويلة، فأحسنت إلى البشرية كثيراً وإن كان في الحسن بعض الضباب، مندفعاً في لحظات مقفرات، غير مخصبة بندى الكتاب العظيم.. لكنها – تلك اللحظات – ما تلبث أن تستلم للهدى الرباني الندي، فتعود الأمة إلى سيرتها مديدة القامة، عصية على الذوبان، إلى أن جاء عصر ما يسمى «بالنهضة» حيث احتلت البلاد، واستعمر الفكر وغزت الثقافة

الغربيـة مسـاحات شاسـعة مـن أوطاننـا، وأعداداً كبيـرة مـن أهلينـا، فرأيتنـا وقـد أصـبح المنكـر فينـا معروفـاً، والمعـروف بيننـا منكـراً، يسـكن فينـا حـب تقليـد المهزوم لمن هزمه وتغلب عليه، وأصبحت خيمات العزاء تودع كل يوم قيمة من قيمنا التي نعتز بها، وتميزنا في العالمين.

وعندئذٍ قلت في نفس لم أنت صامت، ترنو إلى المشهد المرتبك، وكأنك متفرج أجنبي على مسرحية لا تفهم لغة ممثليها؟! انهض إلى دور يقبل جباه الشوارع.. أيادي المقبلين والمديرين، فلعل أحلام وردة بدأت تتفتح أكمامها في ربيع الأمة، تستكمل النهوض قبل أن تذبل الهمم على وقع أقدام الهائمين على وجوههم ميمين شطر كراهية الخروج من خبال التبعية والاندثار.

= = = = = =

إنك لست الوحيد في هذا الميدان، ولست الفريد فيه، ولست الأول في مضماره، ولست الأخير.. إنك واحد من الرعيل المحب لنهوض الخيل من كبوتها على هدى الكتاب والسنة. فارتحل مع الراحلين في هذا السبيل.

= = = = = =

وكتبت هذه السلسلة من الكلمات التي أحسبها في صميم المراد من نهضة تبتغي فض الكلمات غير المهتدية، وقد تكون دليلاً على درب الهدى والفلاح.

وأنا بذلك لا أزكي نفسي على الله، فهو حسبي فيما عملت وأعمل وفيما خط قلمي ويخط، وهو ولي النوايا الصالحة إن اهتدت أفعالها بأوامره ونواهيه وهدي رسوله الكريم ﷺ.

= = = = = =

وهذه السلسلة منوعة الموضوعات، منها ما هو بشأن التحدي، ومنها ما هو متعلق بالتربية، ومنها ما يتكلم في الاجتماع وفي الحضارة، ومنها ما هو في الإعلام أو في الثقافة أو في السياسة أو في مسؤولية الأقلام، أو في زيغ الأفكار أو ما هو متعلق بشأن المرأة والأسرة، أو بشأن الأدب والإبداع وغير ذلك من الموضوعات المطروقة في الساحة اليوم... وهي كلها نصيحة... وليست عصبية منتنة... والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فريضة.

فإن أحسنت فيما قدمت فهو من الله، وإن أسأت فهو من نفسي واجتهادي ... راجياً مولانا العزيز الكريم أن يرحم ويعفو عن العبد الفقير، ويكتب له الأجرين.. وإلا فالأجر.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه: محمد السيد
في آيار ٢٠١٣م
جمادى الآخرة
١٤٣٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم



تحدي التعرف على معاني الحكمة



قال تعالى:﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة آية: ٢٦٩].

إنها كلمات ربانية موجهة إلى ذوي العقول والأفهام، تخاطب فيهم الطموح المؤمن الذي يقود إلى تهذيب العقل بنور الشريعة، وتنوير القلب بربطه بالله رب العالمين، وتطهير الروح بجلاء وصفاء الإخلاص في العبودية، ومعالجة الجسد بمداومة العبادة، وترويض السلوك السامق.

إنها الحكمة.. ضالة المؤمن الداعية، ووسيلته الناجعة لخلاصه شخصياً ولنجاح حركته بين الناس، وهي في الوقت نفسه رسول كلمته إلى القلوب، فهذا رسول الله ﷺ، عندما رأى فطنة ابن عباس رضي الله عنهما وفصاحته، رفع يديه إلى السماء، ودعا له بدعاء عظيم: "اللهم آته الحكمة".

فما هي يا ترى الحكمة التي تكون للداعية زاداً وذخراً وسلاحاً يبدد هنات البيان والإفصاح، ويهزم جذور الإعراض والتوقف والصدود عند الآخر؟

- هل هي متمثلة في الكلمة البليغة الفصيحة، التي تعرف مواقعها من العقول والأسماع، وتتلمس أحايين القبول والاستحسان والانقياد لدى المتلقين، وتراعي المستويات والمحيط والظروف، وتزين ذلك كله بالتيسير والتبشير والأمل؟ وذلك مصداقاً لقول الله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل آية: ١٢٥]. ومطابقة لحديث رسول الله ﷺ: عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: "كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا بكل خميس مرة، فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك إني أكره أن أملَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا" متفق عليه.

- أم أنها القدرة على تقديم الإسلام للناس على أنه مطلبهم وما ينشدون للخروج من أغلفة الأزمات والخوف والضياع، التي تلف حياتهم بأردية صفيقة من الحيرة واللهاث خلف السراب، الذي لا يعطيهم جواباً واحداً صحيحاً عن مغزى هذه الأيام التي يعيشونها، وتلك المعاناة الأليمة التي تنتج طريقة العيش بعيداً عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها؟ وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾.
- أم هي قوة في الحجة وضعها الله تعالى تحت تصرف الدعاة، يستطيعون من خلال تنميتها ورعايتها في نفوسهم وسلوكهم وعلومهم وعقولهم ومواقفهم الوصول إلى درجة من الإقناع عظيمة، مصطحبة في خطواتها البرهان المنير الساطع القاطع، والاستشراف المبصر النافذ المسدد والعلاج الشافي الناجز؟ مصداقاً لقوله تعالى:﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وتنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله في حجة الوداع: (استنصت الناس) متفق عليه.. ترى أفبغير حكمة القول والعمل يستنصت الناس؟
- أم أنها تكمن في حسن مظهر الداعية وعظم علمه، وعنايته بفصاحة كلمه وبيانه؟ مطابقة لحال ابن عباس الحكيم الذي وصفه عمر بن الخطاب بأنه: "فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول" وقال فيه مسروق ابن الأجدع أحد كبار التابعين: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس.
- نعم إن الحكمة كامنة في كل الذي ذكرنا وإنها لقضية من أهم وأجل القضايا التي تعني الداعية، ويسعى لامتلاكها والتحلي بها.

وقد يقول قائل: من أين للمؤمن كل هذه الصفات والمواصفات؟ إنها لمسافة شاسعة بين متطلبات الحكمة وواقع حال من يقومون بدور الدعاة.

نعم إن الأمر لكذلك، وعن الحقيقة نقول: ليس كل من قال إنه داعية يمتلك حكمة الدعوة وقدراتها ومواصفاتها التي توطئ للداعية أسباب القبول والنجاح. وإذا فات الدعاة بعض المواصفات، فلا أقل من السعي لامتلاك العديد منها بالاجتهاد وأطر النفس. والعمل الدائب المستمر.

وإلا.. فكم رأينا وسمعنا ونقلت وسائل الإعلام من كلام وخطبٍ، تضع بعض من يدعون لأنفسهم شرف الانتماء لصف الدعاة المتقنين في خانة من نكلوا وينكلون بشعوبهم من الطغاة، بل إن بعضاً من هؤلاء المدعين وصل حداً جعل من الطغاة في حياتهم أو بعد مماتهم أولياء لله، فوصف أعمالهم – التي لم يكن فيها في حقيقة الأمر عمل واحد يبتغي وجه الله – بأنها أعمال كان التوفيق حليفها الدائم، والتقوى رفيقها الأقرب.

إن رجالاً على هذه الشاكلة لا يمكن ألا أن يكونوا سداً منيعاً بين ما يدعون إليه وبين المتلقين لأنهم افتقدوا الحكمة التي تحسب حساب المتلقي، وتلتزم الحقيقة والحق وصدق الكلمة، وفي الوقت نفسه لا تمتلك الإخلاص وبيانه الناصع المؤثر، إذ بغير ذلك يضيع صاحب البيان المريض ويضيِّع.



تحدي التمثل بالقدوة

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [سورة البقرة آية: ٩٠].

أولاء هم أنبياء الله سيرة، وسلوكاً، عملاً وحياة، قدوة كل الأجيال من بعدهم. فالهدى الذي بعثوا به هو الهدى، والكلام الذي أرسلوا لتبليغه ودعوة الناس إليه هو الكلام المعتبر، الاعتقاد به واجب، والالتزام بهديه، خلقاً وأدباً وسلوكاً وشريعة حياة آمنة مطمئنة.

إنهم الرسل والأنبياء، الذين كانوا رجالاً من البشر﴿ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [سورة إبراهيم آية: ١١]، ولكن الله شرفهم بحمل دعوته وكلماته وهديه إلى الناس، إنقاذاً لهم من السير في طرق الضلال والهوى وإتباع أصحاب الأهواء والطغاة.

ولقد كان لزاماً على كل الناس إتباع هدي الرسل، ممثلاً بما ختم الله به الرسالات، من وحي أنزل على سيد الرسل محمد ﷺ مجموع في كتاب كريم عزيز هو القرآن الكريم، وحديث شريف صحيح، وضح وشرح وفصل، وسلوكٍ وعمل بيّنا المطلوب وأفصحا عنه:﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة آية: ٣٣].

وكل ذلك رحمة من الله لعباده ورأفة بهم أن تَزل أقدامهم فيكونوا أعداء أنفسهم، رغم ادعائهم العلم والعقل والتقدم، وذلك شأن ناس هذه الأيام استعلوا بالتكنولوجيا التي تكاد ترديهم، وبالتخطيط الذي يسير بهم إلى أوضاع أقل ما يقال فيها: إنها تقودهم إلى الضياع، بسبب أنها ذات عينٍ واحدة، وزاوية نظر واحدة، وتمشي على ساق واحدة، فهي من المادة وإلى المادة آيلة، والمادة إن لم تكن فانية، فهي متحولة بلا إرادة من صاحبها ولا استطاعة منه على التحكم بذلك التحول.

ولقد أرسل الله كل نبي إلى قومه، عندما بلغ الزيغ فيهم مبلغه، وطغى في حياتهم الانحراف. وجاء خاتم الأنبياء عليه صلوات الله وسلامه رحمة للعالمين، وبشيراً للناس أجمعين، وختمت به الرسالات، وقامت الحجة من بعده على الدعاة، كي يحملوا رسالته، ويبلغوا دعوته، وينقذوا الناس من الران الاستعلائي، الذي غلف قلوبهم وجرى بهم في أودية الضلال المعلب بالعلم

والتكنولوجيا.

وكان أمر الله لهؤلاء الدعاة بالاقتداء بالأنبياء وبهديهم ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[سورة الأنعام آية: ٩٠] وجعل الله الجدَّ في ذلك والاجتهاد فيه ومجاهدة النفس عليه وحملها على مقارعة الخطوب والصعاب سبيلاً إلى الاستقامة على الطريق السديد ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[سورة العنكبوت آية: ٦٩].

كما جعل الاستقامة التامة المتمثلة في استقامة رسولنا الكريم ﷺ على أمر الله﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود آية: ١١٢] سبيلاً للظهور بهذا الدين والنجاة يوم المشهد العظيم، وقبول دعوة الداعية لدى العالمين.. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر آية: ٥١].

فيا أيها الأخ داعية اليوم... أقول لك كلمات خارجة من القلب، وأدعو إليها نفسي قبل نفسك، هيا بنا نجعل هدي رسولنا الكريم قدوة ونبراساً وعملاً لا نحيد عنه أبداً، بل نستقيم عليه، كما هو أمر الله تعالى لنا وله ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾[هود آية: ١١٢] أي لا تخرجوا عن حد هذه الاستقامة قيد أنملة.

وبكلمات الرسول الحبيب الرائعة نتعظ «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه» من خطبة الوداع وقد ورد مثله في جامع بيان العلم ٢/٢٤ وهذه هي قضية الداعية الأولى والرأي السديد، إذ ترشد بهما مسيرته وتستقيم حياته وتقبل دعوته.



تحدي النفس اللوامة



قال تعالى:﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة آية: ١- ٢].

وتمضي الآيات القرآنية في صنع الإنسان المسلم والنفس المؤمنة على عين الله، لتبزغ من خلال ذلك قامة الداعية، وقد شمخت في تركيبتها؛ تلك التربية الربانية السامقة، التي لا تترك شاردة ولا واردة في السلوك الإنساني للمؤمن، إلا وقد انتظمتها في باقات عطرة من التوجيه والتنمية والرعاية المستمرة، لا بل إن تلك الباقات لتلاحق النفس حتى تدخل في هواجسها، فتسلك تلك الهواجس ضمن المنظومة التربوية المترتبة على المضي قدماً في الربط الدائم بين الحقائق الكونية والأخروية،وبين مستلزمات قيام النفس الإنسانية قياماً مستقيماً عادلاً مرتفعاً ومترفعاً عن حاجات الطين وأوهاق الضرورة البشرية الدنيا:﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾؛ بربط محكم وعظيم بين مشهد عظيم رهيب، تظهر فيه نتائج الكدح الدنيوي، وتعرض فيه النفوس عارية من كل تصنع أو تستر أو تسويف أو تزيين لتثبت حقيقة واحدة ماثلة للعيان تقول:إ ن كل ما كانت النفس الخبيثة تحاول أن تبعده أو تموه عليه، أو تغبش رؤيته الحقيقية هو الآن واقع يواجه النفس وهي عاطلة من كل حول وطول أو اقتدار على تلوين الأشياء والسلوكيات بلون الشهوة والهوى.

إن التوجيه الرباني الذي يبدأ مع الحياة البشرية منذ دخولها معترك التجربة على ضوء قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴾، يأتي فيه وجود النفس الإيمانية العظيمة اللوامة على قدر قامة الحدث العظيم الرهيب "يوم القيامة" فهذه النفس المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها، وتتلفت حولها وتتبين حقيقة هواها، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله (فيذكرها مع يوم القيامة) كما ذكر سيد قطب رحمه الله في الظلال.

وإذن فالداعية اليوم وفي كل عصر ومصر لابد له من حمل تلك النفس بين جنبيه تحاسبه وتوقفه، وتستدرك على مشاعره وسلوكه وتنقي هواه، وتفتح له أبواب الخير، وترتفع به إلى قمم المعالي وشواهق السلوك. إنها النفس التي

تضـع الداعيـة بدايـة علـى عتبـة فهـم معنـى وجـوده﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات آية: ٥٦] ثم لتنتقل بـه إلـى تدبر معنـى: أن هذه الدنيا ليست دار مقام وخلود، بل هـي مركب عبور، وسبيل مرور وتزود بـالزاد الموصل إلى دار المقامة والخلود.. وبعد ذلك تجعلـه يتدبر وظائفه وواجباتـه التـي تبزغ من خـلال كونـه داعيـة متبعـاً رسـول الله ﷺ، ومتخذاً من أقوالـه وأعمالـه قدوة وشعاراً وسلوك حياة وتوجه، وظيفته فيها محددة بقوله ﷺ: «من دعـا إلـى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» (رواه مسلم).

وبقولـه عليـه الصـلاة والسـلام: «مـن دل علـى خيـر فلـه أجـر فاعلـه» وبتوجيهه ﷺ لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق عليه.

ولا أعتقد أن أحداً يماري في أن الوصول إلى نفس كتلك النفس التي ذكرنا بعض أوصافها هو قضية كل داعية مؤمن فـي عصرنا، حتـى إذا تم لـه ذلك اطمأنت نفسه، وارتاح ضميره، ولانت عريكته لقول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة آية: ١١٩]. ثم وجد دواءه مما يلاقيه من تحدٍ وضغوط ومواجهات في توجيه ربه لـه، من خلال قولـه جل من قائل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران آيـة: ١٧٣] وتلك هـي التـي تسنده، وتدعمـه، وتـوقظ فيه نعمة الاطمئنان إلى النتائج مهما كانت. مستنيراً بقول رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه» رواه مسلم. وامض في طريقك المرسوم حاملاً تلك النفس اللوامة الوقافة، التي ترد عنك كل أذى المواجهة، وتسد لك ثغرات الخلل التي تفتحها تهويمات العصر وزخارف ضلالاته. وإنه للتحدي للانحراف أينما كان وكيف كان. وتحدي النفس الداعية للتقاعس عن مهمة الدعوة إلى الله.

التحدي في الرقابة

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

روت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل) رواه الترمذي والإمام أحمد وابن أبي حاتم.

إن مراقبة النفس والسلوك والخوف عليهما والتخوف منهما، إحساس دائم يلازم المؤمن وأصحاب الحركات الإسلامية، به يعدلون أوضاعهم، ويصوغون حركتهم، ويسوون سلوكهم ومواقفهم، بحيث تكون جميعها محكومة بشرع الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وليس كمواصلة الذكر، وحضور القلب الحساس، ووجود الذوق الرفيع، مساعدات ومؤهلات للمؤمنين، كي يكونوا في جميع أوقاتهم على قدم رسول الله ﷺ يتحسسون من أنفسهم وسلوكهم كل لفتة وكل خطوة، بل كل خاطرة وفكرة، وكل موقف وعبرة، يجودون براحتهم ويبذلون عزائمهم، ويقدمون غاليهم والثمين، من أجل أن تستقيم لهم النفوس، ويتعدل السلوك، ويمتلك الخوف المصحوب بالرجاء كل سكنة وحركة من حياتهم، وحتى تتحول هذه الحياة عندهم إلى مطية صالحة للعبور إلى الفوز بالنعيم المقيم ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥].

إنهم يؤدون كل تلك الرقابة والحضور، ويبذلون كل ذلك الوسع لبلوغ الاستقامة والاعتدال﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ خوف دائم

حاضر، بعيداً عن العجب والكبر المحبطين للأعمال، المنحرفين بالنيات، القاتلين للإخلاص، الصانعين للطاغوت والطغيان، في ظل غياب الاتعاظ بقوله تعالى:﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

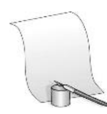
وفقدان بوصلة رسول الله ﷺ التي تؤشر إلى أن"من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة" رواه الترمذي وقال حديث حسن.

مع أن اتخاذ تلك البوصلة دليلاً وهادياً قضية هامة من قضايا المسلم المعاصر في طريقه إلى النجاح وسيره إلى الفلاح، فإن علامة السلامة والنجاح في المسير البدء بإغلاق باب الإعجاب بالنفس وعملها، كما إغلاق باب تقبل المديح والركون إليه في تقييم الأعمال والسلوك، فلكم صنع المادحون المنافقون من طغاة ساموهم في هذه الدنيا صنوف العذاب، وسلطهم الله عليهم بسوء صنيعهم، لما أقدموا على كيل الصفات العالية لأشخاص ليس فيهم منها شيء**!!**

فها نحن اليوم نتجرع كأمة مسلمة ألواناً من الهوان والضياع والخذلان، بسبب ركوب المتزعمين موجة الإعجاب والكبر، القائمين على سلوك مجموعات من المنافقين في هذه الأمة، من المستفيدين وأصحاب المصلحة في استمرار حالٍ فينا كالذي نرى من التخلف والذيلية والهزيمة والفقر والجهل والمرض وغياب الحريات واستبعاد شرع الله وتقليد الأعداء واتباعهم في كل شيء، اتباعاً ببغاوياً لا يفرق بين صالح وطالح ولا بين مفيد ومفسد. كل ذلك يجري وهؤلاء المفسدون من المستفيدين وأصحاب المصلحة ينثرون البخور في ظرف الطغاة المتجبرين، فلا يدعون كلمة مديح قاموسية أو شارعية إلا ويحضرونها إلى الساح، فيسدون الأفق بكل مبتذل سمج باهت كاذب من الجمل والتراكيب اللغوية الفارغة من أي معنى. والعجيب أن هؤلاء لا يكتفون بمثل هذا الذي يندى له الجبين حياءً وعاراً، يزجونه لمن جُرّب، فمسخ كل قيمة وكل خلق في تعامله مع شعبه، بل إنهم يقدمون مثل هذه «الزفة» الوقحة لكل آتٍ جديد، قبل أن يوضع على المحك **!** فهم على قرابين مصالحهم واستمرار مكتسباتهم يذبحون الأمة وحريتها وتقدمها.. غير مبالين بأية قيمة غافلين – في غمرة الركض خلف ما في هذه الحياة من مغريات – عن حقيقة أن كل شيء في هذه الدنيا فإن ومنتهٍ، وأن هناك وقفة بين يدي الجبار حيث لا يهمل أي

عمل مهما صغر، وغافلين أيضاً عن حقيقة أخرى بينها رسول الله ﷺ إذ قال:"حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه" رواه البخاري.

فالله الله .. أن لا تهنوا ولا تغفلوا أيها المسلمون عن شعب مسلم مجاهد في سورية، يذبح بأيدٍ تكالبت عليه الأعادي، من صفويي إيران ودببة روسيا، ومن تآمر الغرب، وصمت الأمة وتخاذلها... ألا فانصروا شعباً شعاره في حراكه.. نريد الحرية والكرامة (يا ألله مالنا غيرك يا ألله).



التحدي في الفرار إلى الله



قال الله سبحانه وتعالى:﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات آية: ٥٠].

الدعاة والمسلمون يتعرضون في كل عصر إلى الكثير من فتن وجواذب الحياة، وهم في هذا العصر تتناوشهم الفتن والجواذب الأرضية أضعافاً مضاعفة، وذلك لما اتسم به عصرنا هذا الذي نعيشه من قدرة هائلة على تزيين الأفكار، وزخرفة الباطل، وإمكانيات مدهشة في مجال الاتصال وبث الصور الحية، ومخاطبة الناس أينما كانوا ومهما كانوا.

لقد أثقلوا الحياة بشتى الأفكار، وعلقوا الإنسان فيها بقيم لا تزال تمسك بعنقه فتلويه، ولا فكاك له منها إلا باللجوء إليها، ما دام قد أسلم روحه وعقله وقلبه لها من قبل، فقيم الاستهلاك التي تستولي على نواصي الإرادة عند الإنسان في هذا العصر، وقيم الانفلات من كل الضوابط التي تقود هذا الإنسان إلى حتفه وهو يظن أنه قد حصل على حريته الكاملة، وقيم تأليه الإنسان وعقله التي جرته إلى صنع آلة دماره، وهو يظن أنه يخترق ملكوت كل شيء، وقيم التميز العرقي وما جرت على الإنسان من مآسي الهيمنة والعبودية والاستعمار والحروب المدمرة. كل هذه القيم والأفكار التي ضج انتشارها وعلا صوتها، أدت إلى مزيد المزيد من تعلق النفس البشرية بأوضار الأرض. وسلعتها الفانية، وما تقتضيه هذه من خضوع لضرورات المعاش، والتعلق بالأسباب، والتشبث بالحرص، والانحياز أكثر فأكثر إلى الفردية، والانطواء على الهموم الخاصة.

ويتعرض المسلمون اليوم والدعاة منهم بصورة خاصة إلى مثل هذا الامتحان الصعب؛ من هجوم عليهم بكل أسلحة الحياة الثقيلة، التي تحاول إبطال مفعول المقاومات الذاتية، من خلال العرض المتقن أولاً، ثم من خلال الإحاطة التامة التي توهم بانقطاع المدد وفقد الأمل.

وتأتي الآية الكريمة لتنزل على قلب الداعية المسلم في هذا العصر طازجة ندية رطبة عظيمة التأثير، شديدة التنبيه والتحذير، قوية في الإيقاظ «ففروا إلى الله» والفرار إلى الله قضية المؤمن، إذ تفتح وتوسع أعين الدعاة، وتوقظ ملكات

التلقي الواعي الحاضر، لتردد الألسنة لاهجة متلهفة: من ماذا يا رب نفرُّ؟ فتأتيهم الأجوبة فذة حكيمة قائلة: إذا قيل لكم: - إن الحياة خضرة حلوة عذبة. فقولوا نعم ولكن الجنة أنعم وأعذب وأدوم وأعلى وأغلى وأبقى.

ونحن نفرُّ من الفانية إلى ما عند الله من نعيم أدوم وأبقى وأغدق.

وإذا نادوا فيكم: أيها الناس إن الناس قد جمعوا لكم.. ففروا إلى الله بقلوبكم وجوارحكم وعملكم، مرددين بلسان واحد ولهجةٍ واثقة: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا سمعتم نداء الحياة يقول: إن الرزق هو الأول، فقولوا: نعم.. لكنه مكتوب، ونحن نفر إلى الله الذي عنده خزائن السماوات والأرض، وعنده علم نصيب كل مخلوق، وقد رضينا بما قسم الله لنا، بعد أن أفرغنا الوسع، وقدمنا الجد والكد.

ولو أن الحرص همس في آذانكم، يريد تخويفكم على حياتكم أو ما بين أيديكم من أمانة، كثروة أو أطيان أو وظيفة أو أهل وذرية، ففروا إلى الله، بالرد على الهمس قولاً وعملاً صادقين، وهل ما بين أيدينا من كل ذلك إلا أمانة استودعها المانح المعطي لدينا، فإذا أراد الواهب استرجاع هبته، فإنما هي عارية مستردة، فعلام تخاف؟ وممَ تخشى ونحن وكل ما في هذه الفانية منه وإليه؟ وهو الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وأنعم به من بيع وتجارة لن تبور! وهو الذي عرض علينا البضاعة إذ قال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران آية: ٩٢] فكيف نصغي لهمس النفس الأمارة ولا نفر إلى عرض ربنا الرابح؟!

فإذا سمعتم نفث النافثين ممن أقعدتهم ضرورات الدنيا عن المعالي، يخاطبونكم بالقول: إنكم بهبتكم لتلبية نداء الله، في الدعوة إلى دينه وإقامة شرعته وتحكيمها في حياة الناس، إنما تضعون أنفسكم في مواجهة الكبراء من الرسميين والمثقفين الملتصقين بهم، وحينئذٍ فأين السلامة من تهمة الإرهاب والأصولية وعقابيلهما؟

إنكم إذا سمعتم ذلك فقولوا: إننا نؤدي الواجب، ونفرُّ إلى الله فهو الملاذ الذي بيده تسيير شأن الخلائق، فإن كان النصر فهي الحسنى الأولى، والفرحة بها لا تزيد على الفرحة إن كان قدر الله قد قضى بالثانية وهي الشهادة، وإن لم نفعل فإن قوله تعالى ونذيره ينتظرنا ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإذن فنحن نفرّ إلى

الله ونلوذ به من النذير، باختيارنا الواجب الذي تقتضيه رعشة الأُنس بالله، وطمأنينة الأمان الذي نلقاه في جنبه، ألم تقرأوا قول سحرة فرعون له بعد أن آمنوا، واهتزت قلوبهم طرباً بأمان الله، فرددوا بلسان واحد: ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه آية: ٧٢]؟



تحدي الإخلاص في السلوك



قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وفي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

الإخلاص رأس الصلاح وهمة الكبار وديدن المتقين الصالحين،إذ بدونه يشوب العمل الصنعةُ والتكلفُ ومرادُ النفوس إلى الشهرة وارتفاع المقامات. وبروز الأعمال والحصول على درجة الرمزية والقدوة. ولو بغير حق أو حقيقة.

وجماع الإخلاص، حددته الآية الكريمة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. ولقد أتقن إبليس فن التلبيس على الناس في أعمالهم، إذ يخفون رغائبهم في السعي إلى الرياسة، وتصدر مجالات الذكر والشهرة والمباهاة، والحصول على رتبة الرمزية في العالم، من خلال خداع النفس، والمظاهر والتظاهر بتحصيل الشيء والعلو في الشأن دون أن تكون الحقيقة كذلك. وقد ذكر الإمام الحافظ ابن الجوزي – رحمه الله – في كتابه تلبيس إبليس شيئاً عن أمثال هؤلاء الساعين إلى الشهرة وتبوئ مكانة الرمزية بين الناس بغير حق، وأدرج في عداد هؤلاء تلبيس إبليس على مدعي علم الحديث الشريف، إذ حرض بعضهم على أن يدخل في كلامه بعض الألفاظ وأسماء بعض الأماكن، كي يظهر للناس أنه سافر وتعب وشقي في تحصيل الحديث، وهو في الحقيقة لم يغادر بغداد، ولم يسافر، وقال ابن الجوزي بحق هؤلاء: (وهذا كله من الإخلاص بمعزل، وإنما مقصودهم الرياسة والمباهاة، ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه).

وإذن فالإخلاص لله، هو جعل الهدف والغاية مرضاته، وربط العمل كله والقول كله بغاية واحدة، بلا مشاركة مهما كانت، وهذه الغاية هي طلب رضى الله وإتباع رسوله ﷺ، أقول: إن هذه كلها هي التي تحققها النية الخالصة، وتحري الحق الذي جاء به الحبيب محمد ﷺ من كتاب وسنة، ليكون العمل المنوي القيام به على قدمهما، وموافقاً لحكمهما: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» متفق عليه.

وعلى هذا فإن من يعمل العمل أو يقول القول، أو يكتب الكتاب أو المقال، وفي قلبه وعقله وعاطفته يسكن غير الله، فليعلم أن الشرك خالط عمله وقوله وكتابته، لأن إبليس كان حاضراً مبادرته، يسوّغ له غاية الوصول إلى الشهرة بحديث موهم، يريد القول: إنك تكتب ما تكتب، أو تفعل ما تفعل، أو تقول ما تقول، من أجل إيصال الخير للناس، ولا ضير في أن تكون الشهرة والمباهاة والوصول أهدافاً مشاركة.. وهذا مهلكة للعلم، ومضيعة للمصير، وهو فعل الصغار، الذين يريدون رفع قاماتهم دون حق، وقد حرّر ابن المقفع في أدبه وصفاً بليغاً لمن أدرك موقعاً لدى الناس فقال: «ومن نَصَبَ نفسه للناس إماماً في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطُّعمة (المكسب) والرأي واللفظ والأخدان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يونق الأسماع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم».

وقد قال في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

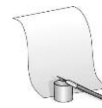
وجاء في الحديث الذي رواه أبو داوود: «من أعطى لله تعالى، ومنع لله تعالى، وأحب لله تعالى، وأبغض لله تعالى، وأنكح لله تعالى، فقد استكمل إيمانه» حديث من صحيح أبي داوود.

وإذن فإن سعي الإنسان كله موكول إلى الإخلاص لله تعالى، إخلاصاً لا تشوبه شائبة من أهداف دنيوية، أو رغائب شخصية، أو أطماع أنانية، فإن حدث وكان ذلك فإنه سعي متروك عند الله، لا قيمة له، بل هو مُدخل للإنسان في باب حبوط العمل والعياذ بالله. وإن كلامنا هذا لا يعني أننا ضد أن تبرز رموز في العمل لله، تكون قدوات في شتى المجالات، في الإعلام، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، وفي الأدب، وفي الاجتماع، وفي العلم، وفي التقنيات، وفي الفقه، وفي الحديث، وفي كل المجالات.

إننا لسنا ضد ذلك، بل إننا من الذين يحضون عليه، شرط أن تأتي الرمزية والقدوة من لدن الناس، الذين يقرأون ويسمعون ويشاهدون، وليست هدفاً من أهداف الشخص، يسعى إليها بتقدماته في المجال الذي يعمل فيه؛ لأن ذلك إن حدث يكون كما قدمنا خارج مجال الإخلاص، وداخل الشرك، وتلبيس إبليس، ويكون والعياذ بالله سبباً في إحباط عمل الشخص أولاً، وسبباً في عدم تحقق المبتغى من الرسالة التي يحملها الإنسان.

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ أشد الناس وفاءً لهذا المبدأ، الذي هو

الإخلاص، وقد تحققت لهم الرمزية والقدوة دون سعي منهم، بل جاءتهم من خلال سلوكهم وفهمهم وتواضعهم لله، ومحض حياتهم كلها لله.. فلما رأى الناس منهم ذلك، رفعوهم رموزاً وعلامات فارقة في التاريخ يقتدى ويهتدى بهم.. وقد سجل تاريخ المسلمين على مدى الزمان الكثير من أولئك الرموز الخالصة لله..
وقد كان الإمام حسن البنا – رحمه الله – واحداً من هؤلاء الخالصين لله في عصرنا الحديث، فأكرمه الله بالشهادة أولاً، وبعودة اسم الإسلام إلى واجهة الحدث، وصلب الأيام، وحديث المجتمعات، وعلى طريق وعد الله بالنصر لهذا الدين.



تحدي الإخلاص في السلوك



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة آية: ٤٢].

- الأرض .. التراب.. وحسب، ليسا انتماءً سديداً، ولا تكون الحروف المتدحرجة على الشفاه خالصة حتى تتخضب ذؤاباتها بالجُهد والجَهد، وبالصدق والمواقف الحازمة العازمة عند الكرب.. وعندئذٍ يكون الانتماء في أن ترحل مع الأرض باتجاه السماء، وإلا فالالتصاق بترابها وحسب يورث النفاق، وينافي نقاء النصاعة، ليستقر صاحب ذلك الالتصاق في بؤرة البحث عن العرض القريب والسفر القاصد.. فإن افتقدهما باعك وباع القضية عند أول التواء في الطريق، يأخذه باتجاه التراب وحسب. وذلك مصداقاً لقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.
- إنهم إذ بعدت عليهم الشقة، لما كان السفر بعيداً، والغايات عظيمة غالية، انحازوا إلى القرب والسبيل القصير، الذي يجدون فيه شيئاً من لعاعات الدنيا، التي جعلتهم يدخلون الميدان، ظناً منهم أنه يقودهم للانتماء والالتصاق بالأرض، حيث هي مبتغاهم حصراً، بعيداً عن الضياء، حامل تذكرة السفر الشفيف إلى السماء.

وهكذا ينطبق على هؤلاء قول ربنا جل وعلا ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة آية: ١١] معرضين بذلك عن جذوة الإخلاص، التي تحملها بقية الآية (١١) من سورة الجمعة إذ يقول الله جل من قائل:

﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

- و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[الانشقاق آية: ٦] فاجعل كدحك داخل جذوة الإخلاص، وأصلاً أرضك وطينك بالسماء، فإنك بهذا تربح ربحين، تمخر عباب الحياة بزورق مجاديفه من الإخلاص، وتسافر سفراً غالياً إلى حياة تزخر بالعطاء الواصل بين الدنيا والآخرة. إذ تعطيك عمراً أيامه لا تنفد مع الممات، وساعاته لا تنقضي مع ساعة الفراق، فالإخلاص نبع لا ينضب، وحبل من النجاة لا ينقطع، فلا يقف بصاحبه عند حدود لحظاته المحدودة، بل هو يمدّ له مدّاً خيّراً، يجعل حياته متواصلة، ووجوده حاضراً حتى بعد غياب الطين، ثم هو يجعله في ذمة الله، الذي يؤتيه كتابه بيمينه، وحينئذٍ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق آية: ٨- ٩].
- إن الحياة بالإسلام وللإسلام مسؤولية ثقيلة ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل آية: ٥] ولكن الإخلاص يهون من ثقل تلك المسؤولية، فيجعل من العمل لرفعة الإسلام متعة ما بعدها متعة، وذلك عندما يقود إلى وضوح الطريق ونصاعة الغاية، ونظافة الوسيلة، وكل أولئك يذللون الصعاب، ويقربون الهدف، ويبنون الثقة بالله، ويصعدون بالإخلاص إلى درجة اليقين بعون الله وقدرته على جعل أمر الإسلام غالباً نافذاً إلى بوابة قول الله جل وعلا﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].
- وهذا الإخلاص الذي وضحنا معالمه تقصر عن بلوغه نماذج من الناس لا تقوى قلوبهم على تحمل تبعاته، لأن قواهم تخور عند رؤية آفاقه السامقة، او عند تصور المآلات الخطيرة، التي قد تنتظر صاحب الدنيا ومبتغي السلامة بأي ثمن. ولا بأس هنا من توضيح الأمر وإضاءته أكثر بشيء من قبسٍ قاله عملاق الدعوة المعاصرة الإمام الشهيد حسن البنا – رحمه الله – وشيء من قبس نير ألقى به على سمع الناس شهيد كبير من شهداء هذه الدعوة هو المفكر الفذ سيد قطب – رحمه الله.

- أما الاقتباس مما دونه الإمام الشهيد عن الإخلاص فهو من رسالة التعاليم، حيث قال: «وأريد بالإخلاص أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر. وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض ومنفعة» ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام آية: ١٦٢-١٦٣].

ومن مفهوم قول الإمام هذا نستطيع التعرف إلى أسباب تساقط الكثير من الناس على الطريق اللاحب للدعوة، وعدم قدرتهم على المضي باستقامة وعزم وإخلاص لاجتياز سويعات الحياة راشدين مرتبطين بربهم أمتن رباط، متحملين كل الصعاب والمعوقات والشدائد، معرضين عن المنافع والرغائب إلا ما أتى منها بلا حرص ولا مزاحمة مريبة.

- وأما الاقتباس مما دونه الشهيد سيد قطب في سفره العظيم في ظلال القرآن فيقول: «ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة، وإنه لنموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة. وكثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ومكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور، وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خيّل إليهم، أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص».

- **والخلاصة**: فإن العمل ثمرة الإخلاص والعلم كما قال الإمام الشهيد، فلا تتحقق الغايات، وتزهر الآمال المرجوة من دعوة الإسلام ورؤى الرجال إلا بتحقق الإخلاص، وربط القلوب بالله، حيث تتصل ثقلة

الطين بنور السماء، لتشع خيراً وحباً وبركة على الأرض، وليس هناك برهان أعظم على هذا الذي نقول من وقائع الحديث الطويل المتفق عليه، الذي يروي قصة أولئك الثلاثة النفر الذين باتوا في غار، ولكنه أغلق عليهم ولم ينفتح إلا باستحضار كل واحد منهم عملاً من أعمال الإخلاص التي عملوها في حياتهم، وكان قد ربط فيه قلبه بالله موصلاً السماء بالأرض.. وبذلك نجا الثلاثة، وانفتح الغار ببركة الإخلاص الذي توجه فيه العمل لله وحده خالصاً من كل عرض قريب أو سفر قاصد.



تحدي الإنصاف

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح آية: ٣].

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر أية: ٩٥].

يقول د. باسم الخفاجي في بحثه القيم الذي نشره في الإنترنت ٢٠٠٦/٢/١٦ موقع النبي com: لقد قدم رسول الله ﷺ نموذجاً متكاملاً لحياةٍ موازيةٍ لحياة الغرب.. لا تلتقي معه اضطراراً، ولا تتنازل له خوفاً، والأهم من كل ذلك أنه محبوبٌ بشدة من المسلمين معروف لكل العالم، نجح بكل المعايير الغربية، ولكنه رفض كل مفاهيم الغرب، هو عندهم نموذج يجب القضاء عليه) نقلاً عن كتاب (محمد رسول الله) للدكتور منير البياتي صفحة (٤٠).

نعم... إنهم يعرفونه.. تمام المعرفة.. يعرفون بماذا أتى، وماذا قدّم للعالم، وما الذي يبتغيه.. وأقول يعرفونه.. ولا أعني بذلك كل الناس في الغرب، ولكن هؤلاء المستهزئين هم الذين أعني بأنهم يعرفونه، وهم يقدمون مفترياتهم واستهزاءهم عمداً، وعن معرفةٍ وإصرار، ليضلّلوا بأكاذيبهم الكثير من الناس في الغرب، خصوصاً أن الناس العاديين هناك، تراهم سادرين، لا يهمهم إلا ملذاتهم الشخصية، وشؤونهم اليومية، فلا بحث ولا استقصاء، يأخذهم الإعلام والدعايات كيفما اتفق.

ولكن الحق يمشي بين القوافي فيرسل بهجته إلى القلوب العاقلة، والعقول الحاضرة، لتخرج الكلمات على ألسنة أصحابها ذهباً، يبرق في دياجير المستهزئين الماكرين المنكرين الجاحدين، الذين تتعثر خطواتهم في الضلالات، ويئد قلوبهم الحسد والأحقاد، فتخرج كلماتهم سواداً في سواد، رغم أن بريق الكلمات الذهبية يحيط بهم، ولكن الموات حليف أفئدتهم وأبصارهم تَغَشّاها الضلال، بدل أن يفتحها البريق، وها هي كلمات العاقلين من بني جلدة المعتدين في الغرب على حق الرسول الكريم ﷺ تطمس ترهاتهم، وتهمي غيثاً ينبت الحق الذي يقول:﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾، ويبعث برسالةٍ إنسانيةٍ دامغة لضلال

الحاقـــــــــــــــــــدين، تقـــــــــــــــــــول لهـــــــــــــــــــم ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾، وهنا تمسح الكلمات على قلوبٍ حزينة مؤمنة، تصرخ أرواحها، وتخفق جوانحها من ألم ينبع من عمق المأساة التي أنتجت أناساً يعبثون حتى بسطوع الشمس، ليقولوا: إن العالم دياجير، والله الحق جل جلاله يقـــول وقولـــه المنتصـــر: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف آية: ٨] ولا أقول هذا من عندي، بل هو ما قاله المستشرق الفرنسي رينان، وشهد به على حقد الحاقدين من قومه، وذلك حين أعلمنا بالآتي: «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد.. إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له..»

إلا أن الإنصاف يقودنا إلى الإنصات باحترام إلى كلمات عاقلة منصفة تنطلق من أفواه علماء غربيين دارسين فاهمين واعين، يضعون النقاط على الحروف بحق الرسول الكريم ﷺ، ولتكون أقوال هؤلاء العقلاء داخلة حصة من الحصص الكثيرة، التي أيد بها ربنا جل وعلا نبيه الكريم، فدفع بها مفتريات المفترين، الذين ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] وليطبق قوله جل وعلا ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- فهذا (توماس كارلايل) الإنكليزي في كتابه الأبطال قد وضع رسولنا الكريم في بنده الأول كأعظم أبطال الدنيا، وأسمعه يقول في وصف الرسول ﷺ: «إنه راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهمم، كريم، برٌّ، رؤوف، تقي، فاضل، حرٌّ، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس، مشرق الابتسامة».

  وقال أيضاً «ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح على المستويين الديني والدنيوي».
- وهذا ليف تولستوي الأديب الروسي الكبير يقول: «ويكفي محمداً فخراً أن خلص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طرقات الرقي والتقدم، وأنّ شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».
- وهذا رجل السلام الهندي المهاتما غاندي يقول: «أردت أن أعرف

صفات الرجل الذي يملك دون منازع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع: أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول، مع دقته وصدقه في العهود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته...».

- ويقول المفكر والأديب الفرنسي "لامارتين" «أود أن أتساءل هل هناك من هو أعظم من النبي محمد» وهو يقول ذلك بعد أن عدد منجزاته إذ قال: «لكن هذا الرجل محمد، لم يقد الجيوش، ويسن التشريعات، ويقيم الإمبراطوريات، ويحكم الشعوب، ويروّض الحكام وحسب، وإنما قاد الملايين من الناس، فيما كان يعد ثلث العالم آنذاك».
- ولا ننسى في هذا السياق أن نورد ما قاله الفيلسوف الإنكليزي برناردشو: «إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالداً خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين الفسيح في هذه القارة (أوروبا). لقد اطلعت على أمر هذا الرجل (محمد) فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدواً للمسيحية، بل أن يُسمى (منقذاً للبشرية). وفي رأيي إنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».
- وفي الجعبة الكثير من أقوال عقلاء الغرب (مونتغمري) و(مايكل هارت) و(إدوارد مونيه)، والأمريكي (سنكس) و(زويمر الكندي)، و(بروكلمان)، و(غوستاف لوبون) و(سنوك هرجر الهولندي)، و(الكونت دي بول نيفلييه)، وغيرهم كثير كثير. إن رسولنا الكريم ﷺ ليس بحاجة إلى مثل هذه الشهادات، فهو المؤيد من ربه إذ قال له:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقال له جل من قائل: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور آية: ٤٨]،﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء آية: ٢٢٧].

❖ ولكن الإنصاف تحدٍ قلَّ من الناس من تفوز بـه نفسـه، ويستقيم بـه عقلـه ولسانه.



تحدي الأخذ بأنوار القدوة



قـــال تعـــالى:﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة آية: ١٢٨].

وقال الحبيب المصطفى ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم"رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

يزيد من إقبالي عليك يا حبيبي يا رسول الله أن لا تكلّ عيناي من سكب الدموع عند كل ذكر لاسمك حتى ألقاك على الحوض وأنت راضٍ عني وعن أمتك، فنتناول من يدك الشريفة شربةً هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً.

لقد توسدتُ قلبك الكبير، الذي يعزّ عليه عنتي، أستعين به على قطع مفازة الغرورة، مطمئناً إلى دفء حرصك علينا ورأفتك بنا ورحمتك التي لا تنقطع، فتسعنا بحلمك وعفوك وشفاعتك المستمدة جميعاً من خُلقك الموسوم بالقرآن، شفاعة نرجوها لترقأ جرح غفلةٍ منا أو قرح نسيان إنساني يخالط بعض لحظات وجودنا.. فأنت بالمؤمنين رؤوف رحيم، فلا تتوقف عن سؤال العلي العظيم: ربي.. ربي، أمتي.. أمتي.. شفاعتي ادخرتها عندك إلى هذا اليوم، وتظل تسأل حتى يأذن لك العفو الغفور الرحيم الكريم الجواد.. فيقال لك: ارفع رأسك، اشفع تشفع، واسأل تُعط. نعم فأنت حبيب الله.. ومن غيرك لها.. بعد أن اعتذر كل الأنبياء عن التقدم للرب... متذرعين بأسبابهم.. وتكون أنت الأهل لها.. نعم ..ألست الرحمة المهداة؟ ألست رحمة للعالمين..؟ وإذن فلا عجب أن رأيت اليوم الأمة تجتمع على محبتك والذود عن حياضك.. وتقف وقفة رجل واحدٍ محب عزيز قوي في وجه ترهات من لا يقيم لقيمةٍ وزناً، ولا يقف في حياته إلا على أطنانٍ من حقد دفين: «وما تخفي صدورهم أعظم» وهو حقد يعمي الأبصار، ويدفن العقول في غياهب سجون الجهل واللامسؤولية، ويغيب البصائر خلف أمواج الحسد ومفتريات الذين يصنعون من أفكارهم السوداء أوثاناً تقودهم اليوم إلى العدوان على الإنسان في كل أرجاء الأرض...!!

نعم يا سيدي.. وأقولها ملء الزمان وملء المكان؛ مذ وطئت قدما إنسان هذه الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... أقولها بقوة: نعم إننا نحبك أكثر من الدنيا، وأكثر من الناس أجمعين، وأكثر من نفوسنا التي بين جوانبنا،

ونضحي بكل نفيس من أجل أن نكون على قدمك حذو القذة بالقذة، لا نقيل ولا نستقيل، ولو ذهبت الدنيا كلها في واد وأنت في واد.. لتركنا الدنيا وذهبنا معك إلى آخر شوط الحياة.. فنلقاك هناك بين يدي الله سبحانه في نهاية ولا أعز ولا أكرم ولا أغلى ولا أرغد.

ويحق لي عند هذه الناصية أن أهتف بقول ربي جل وعلا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم آية: ٤] وأُثني بهتاف أم المؤمنين الرضية الراضية عائشة رضي الله عنها وأرضاها إذ قالت حين سئلت عن خلقك «كان خلقه القرآن»... نعم لقد كُنت قرآناً يمشي على الأرض.

- فالجود أنت مبتغاه وقد قلت وقولك الأبلغ بين أقوال البشر: «من ترك ديناً فعليّ، ومن ترك مالاً فلورَثته»، من كتاب أعلام النبوة ص ١٥٥، وروى عن جودك جابر بن عبد الله فقال رضي الله عنه: «ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا» رواه الشيخان.
- وقال الشاعر فيك قولاً، ولا أبين منه في جودك وكرمك:

ما قال لا قط إلا في تشهُدِهِ   لولا الشهادةُ كانت لاؤُهُ نعمُ

- والعدل يختال بانتمائه إليك.. فقد رضيت العرب بحكمك وعدلك من قبل البعثة ومن بعدها فهم الذين رضوا بحكمك في قضية وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة الشريفة، وهم الذين سمعوك ووعوك تقول معلماً وقدوةً: «أفي حُدود الله تشفعُ يا أسامة، والله لو سرقت فاطمةُ بنت محمدٍ لقطعت يدها».
- والشجاعة تتغذى من قلبك المقدام، ومن أجدر بالشهادة لك بالشجاعة..؟ أليس الأبطال والشجعان هم الأجدر بذلك؟ لهذا يقول البراء رضي الله عنه وأرضاه – وهو بطل من الأبطال – في شجاعتك ما يغني عن القول كله: «كُنا إذا حَمي البأسُ نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع الذي يحاذي به» رواه البخاري وقاله البراء من السيرة النبوية لابن كثير المجلد الثالث ص ٦٢٢.
- وها هو في حنين حين انهزم الأصحاب لشدة المعركة وكثافة العدو، وكثرة الكمائن التي نصبها للمسلمين، ووقعوا فيها وهم لا يدرون، ها هو يقف وحده في الميدان، غير آبهٍ بكثافة الهجوم، واحتدام المعركة،

وانفضاض كثير من الصحب، فكان يصول ويجول فوق بغلته البيضاء وهو يصيح بأعلى صوت: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» رواه البخاري ومسلم «إليَّ عباد اللهَ.. إليّ عبادَ الله» حتى رجع إليه أصحابه، والتفوا حول نبيهم ﷺ، وكرّوا على العدو فهزموهم في ساعة.

- وإذا سألت عن الأخلاق فهي تجيبك: إنه معدنها وخزائنها التي لا تنضب. فهذه قريش تدعوه قبل البعثة بالصادق الأمين، وهذه خديجة الكبرى رضي الله عنها تصفه بأبلغ القول: «إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكلّ، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعينُ على نوائبِ الحق» أخرجه البخاري في كتاب مبعث النبي ﷺ وقال أنس في وصف الحبيب المصطفى – وكان أنس خادمه: «كانَ رسول الله ﷺ من أحسنِ الناسِ خُلقاً» أخرجه الشيخان.
- وأما التواضع وهو من صفات الزعماء والقادة الناجحين المحبوبين المقبولين فكيف بالأنبياء المرسلين..؟ لقد كان التواضع يأرِز إلى رسول الله ﷺ ليضعه في مقدمة الركب الإنساني تواضعاً وحباً للتواضع والتخلق به مع الناس، حتى كان يظن كل من يخالطه، أو يجلس إليه أنه أقرب الناس إليه، كيف لا و هو الذي اختار صفة العبودية على صفة الملوكية عندما خيّر في ذلك فقال: «عبدُ اللهِ ورَسوله» وفي الحديث الصحيح: «لا تُطروني كما أطْرتِ النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».
- نعم إن الذي أتاه ملَك الجبال، بعد أن كذبه قومه وطاردته ثقيف الطائف بحجارة الصبية تكذيباً وتصغيراً، ليقول له: «قد بعثني إليك ربك، لتأمرن ما شئت إن شئت تطبق عليهم الأخشبين» فيقول له رسول الله ﷺ تواضعاً ورحمةً ونظرةً مستقبليةً عظيمة: «لا بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً» روي في الصحيحين.

أفبعد هذا يريدوننا أن لا نقف مثل هذه الوقفة ندفع بها المفتريات والكذب والعدوان والظلم عن رسول الله ﷺ.... وهو الرفيق الذي قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه...» رواه مسلم. نعم إننا نصرٌّ ومن الأعماق: أن فم الزمان تبسم وثناء وصلاح يكون بحب رسوله الكريم، وبالهتاف الرباني العظيم ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الانشراح: ٤]، وبالاعتزاز بهذه الأخلاق القرآنية، التي هي القدوة النورانية التي صلح عليها أمر الدنيا والآخرة.. آخذة من نوارنية ربها، وإتباع كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



تحدي الأخذ بالتصديق الرسالي



مثل انبثاق الماء الزلال من قلب الحجر الأصم، ينبثق الإيمان من قلب البشر، وفوق روابي النفس الغناءة يتهادى اليقين، رافلاً بأثواب الوداعة والحكمة وكنه الوجود، ويتعين كل ذلك ويتحيز في قلب رجل من سادات قريش، حين نقل إليه الخبر المعجزة، بعض من رجالات القبيلة لعلهم يجدون عنده بعض النكير أو يشاركهم بعض الاستنكار، لكن جواب الرجل أدهشهم أكثر مما أدهشهم الخبر الأصل، حين قال مستفهماً منهم: أو قال إنه أسري به وعُرج به إلى السماء وعاد الليلة؟ قالوا: نعم..

قال: «فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق.. قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء! فسمي أبو بكر (الصديق).

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء آية: ١].

أصدقك صدق اليقين أيها الحبيب المبعوث رحمة للعالمين، وأحبك حب عاشق رباني لا يلين، أناجي به نفسي كل لحظة، وأعلنه على مسمع من الناس، إيماناً يحمل رفرفة أجنحة الطير، ويستوعب سر هذا الكون، ويتصل اتصال ولهٍ بالموجد الأعز الأعلى، الذي تجلى على حبيبه، فحمله إليه، يوم أن قلاه القوم واشتدت محنته، مواسياً له، ورافعاً درجته، ماراً به من قدس إلى قدس، إلى سدرة المنتهى، وذلك لتكون مكة والقدس والسدرة في ذاكرة البشر سفر هدى واقتداء، وملحمة انفتاح على الحق، لا تنتهي الغبطة بها وبمطالعتها.

ولئن أطال الكثيرون في شرح حادثة الإسراء والمعراج، ودققوا في التفاصيل ودخلوا في خلاف طويل عريض حول ماهية الحادث، أكان بالروح، أم بالروح والجسد، فإني لن أدخل في هذا المجال، الذي يأخذ موقعه في مناظرات العلم والنص وما يتبع ذلك من محاورات ومناقشات ثم استنتاجات، بل إنني سوف أعمد إلى بيان ما في هذا الحادث المعجزة من دروس وعبر وفوائد تصب كلها في نهر الإيمان العظيم، وفي تيار الحياة الزاخر بشتى الفكر

والممارسات، ولست مدعياً بذلك الفرادة والتميز، فالكثيرون دخلوا في الكلام عن الإسراء والمعراج من هذا الباب، ولست إلا واحداً من هؤلاء، أحاول أن أدلي بدلوي، في التوصل إلى بعض الدروس والحكم والعبر التي يوحي بها هذا الحدث الجلل.

١- وأول هذه الدروس: ذلك التصديق الكامل بالرسالة والرسول الذي بدونه لا تقوم لدعوة قائمة، ولا تزدهي أغصانها خضرة، ولا تنتشر فروعها في العالمين، ولا تُفتح آذان بالسماع لداعية، ولا تتفتح عقول لكلمة حق تنطلق بها ألسنة الدعاة، ولقد تمثل ذلك التصديق بصورته الكاملة الموفقة، بموقف الصديق العظيم الذي جعل الرجال من بعده عالة على ذلك الانتصار النفسي الداخلي، نثر عطوره أبو بكر رضي الله عنه، فاستوى تصديقاً ووفاءً حيين يمشيان في الناس مثالاً وقدوة إلى يومنا هذا، وحتى يرث الله الأرض وما عليها، تنتصر من خلالهما النفس من داخلها على كل الوساوس الشيطانية وكل التردد البشري، ويبنيان في داخل تلك النفس ذلك الحب الرفيع لرسول الله ﷺ وذلك الاحترام والتقدير له متجذرين في قلب وعقل ويقين المؤمن جاعلين من العبودية لله والتابعية لرسول الله ﷺ رمزين نقيين تماماً من أي شرك يمكن أن يحدثه ذلك الإعجاز القائم في حادثة الإسراء والمعراج – وذلك كما حدث للبعض القليل ممن تزعزعت عقيدته بعد سماع الخبر –

وإذن فهذا التصديق الناصع بالرسالة والرسول هو الذي يضع المؤمن على خط الإقلاع بدعوته، لينطلق بها إلى العالمين؛ رسالة رحمة وهداية وإخراج من ظلمة المبادئ الدنيوية المادية المغرقة في الحبكات البشرية العنصرية والأنانية والاستكبارية، مبهرجة هذه الأيام بالكثير من لافتات زائفة تدعي التقدم والنهوض والتحرر والتنوير، وهي في حقيقتها غارقة في الطين والفكر المعوج المنحرف المقلد، قائدة إلى هزيمة حضارية لأمتنا كون أصحاب هذه اللافتات شاردين في كل ما يعرضون عن روح ذلك التصديق الصِدّيقي، ساعين إلى ببغاوية ذيلية، لا تدع لهذه الأمة أي مكان أو مشاركة في صناعة الحياة المعاصرة، فهم: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ [الصف آية: ٨] ويجري ذلك العناد المنحرف من هؤلاء مع أن كل الوقائع والأحداث والنصوص تقول: إن الله جل وعلا

بعث هذا الرسول الكريم ﷺ رحمة ورفعة وإنهاضاً للناس من كبوة الجهل، وقد لخصت هذا المعنى. الآية الكريمة القائلة:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢- وثاني هذه الدروس والعبر: ذلك الربط المحكم بين السماء والأرض مكة والقدس في الأرض وسدرة المنتهى في السماء، وهذا الربط يعني أول ما يعني: أن رحلة الإنسان فوق الأرض لا تكون سديدة رشيدة إلا إذا استمدت منهجها من السماء، وركنت في خطواتها إلى وقع رسالة محمد ﷺ على الأرض، وإلى هدير تنظيمها لتيار الحياة البشرية، فكل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالناموس العام الكوني الذي جعله رب العزة خيطاً واحداً، ينظم به كل النشاطات البشرية والكونية بقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء آية: ١٢].

فهذه الأرض هي والسماء والنشاطات التي تدور فيهما محكومة بناموس واحد، تديره وتجري مقاديره وحركته وسكنته، يد القدرة الإلهية، فأي زيغ عن نظام تلك القدرة آيل إلى إحداث خلل ما في ركب المسيرة كلها.. وانظر اليوم كيف أن الزيغ عن نظام الربط بين السماء والأرض، أوجد ذلك الخلل الكبير في نظام البيئة فوق الأرض، وذلك الخلل الكبير في نظام التعامل بين الشعوب والحضارات، فبينما أراد الله للتنوع بين الناس أن يعمل على تعارفهم وتقاربهم وقيام العلاقة بينهم على أسس من العدل والرحمة.. ترى هذه العلاقات اليوم قائمة على أساس القوة والاحتماء بها، من أجل فرض الاستكبار والصلف والهيمنة، ومن أجل سيادة رؤية حياتية واحدة نابذة لكل إثراء وإغناء تقوم به تعددية الرؤية. وهذا كما ترى مخالف للعظة العظيمة التي أوحت بها حادثة الإسراء والمعراج القائمة على الربط بين السماء والأرض كما أسلفنا.

٣- وأما ثالث الدروس والعبر فهو ذلك الربط الخالد بين مكة المكرمة في

الحجاز وبيت المقدس في الشام، ربطاً يتضمن مظهرين:

الأول: منهما:

يتمثل في الربط المحكم بين عقائد التوحيد جميعاً، وذلك من خلال إمامة رسولنا الكريم محمد ﷺ الأنبياء جميعاً على ثرى بيت المقدس في تلك الليلة العظيمة العجيبة، ليقول رب العزة للناس جميعاً: إن النبي الأمي هو وارث رسالات التوحيد الوحيد والأخير، وإن الدين الذي أرسل به ناسخ لجميع الديانات السابقة وحاملها، وإن على من أراد النجاة أن يتخفف من كل ما يثقله، ليلتحق بالدين الجديد ورسوله الكريم، وحتى لا يشوب ذلك الالتحاق أي تردد أو تلجج..

والثاني منهما:

ذلك المعنى الرباني الكريم الذي ربط بين أرضين مقدستين مكة المكرمة والقدس، ليكون ذلك الربط المحكم عقيدة راسخة، تستوعبها قلوب المؤمنين على مرّ الزمان، وليكون معلوماً وحاضراً في أذهان المسلمين أن أي تفريط في القدسين لابد أن يكون ناتجاً عن خلل ما في العقيدة الجمعية للأمة، خصوصاً أن مكة وبيت المقدس ربطتا في الوقت نفسه برباط لا ينفك مع سدرة المنتهى والسماوات العلا والعروج إليها.

٤- وأما رابع الدروس والعبر: فهو ذلك التكريم الرباني للإنسان البشر المتمثل في شخص الرسول الكريم ﷺ مندوباً كريماً فذاً عن بني جنسه لدى الحضرة اللدنية الربانية، إذ جعل الله تعالى هذا الإنسان في أعلى مقام وأكرم منزلة، فهو في مقام التلقي المباشر عن رب العزة، وفي منزلة سدرة المنتهى تلك المنزلة التي لم يبلغها نبي قبله، ولقد حاز جميع المؤمنين المسلمين على درجة هذا التكريم، إذ فرض عليهم عروجاً يتكرر خمس مرات كل يوم، وهو من جعل للصلاة في الإسلام تلك المنزلة العظيمة والمكانة الرفيعة العالية، فكانت عمود الدين ورأسه وأساسه.

ولقد انسحب هذا التكريم الرباني للإنسان على كل البشر مهما اختلفت أديانهم وأعراقهم وألوانهم إذ قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء آية: ٧٠] ويشكل هذا الاعتقاد السلوكي عند المسلم متمثلاً في

احترام وتقدير الناس بوابة دخوله إلى قلوبهم، وسلاح محاربته للعنصرية والأنانية الجماعية والفردية، ووسيلة ابتعاده عن ثقافة الاستعلاء على الآخر أو التهوين من شأنه، تلك الثقافة التي تجر الكثيرين اليوم إلى الممارسات الاستعمارية ونبذ فكرة التعايش والتزام فكر الهيمنة.

٥- وأما خامس الدروس والعبر: فهو ذلك الدرس الذي يجب أن يعيه جميع الناس، وهو يقول: إن العلو والاستكبار في الأرض شرط ملازم ولازم للزوال أو الانهيار الحضاري إذ إنه يشكل في ممارسته - منازعة بشرية لكبرياء الله وجبروته وعظمته، من حاول مشاركته فيهما قصمة الله ولا يبالي أياً كان الممارس لتلك المشاركة. وبناء على هذا نقول: إن الأسد في ممارساته الوحشية ضد شعب سورية إنما كان معتدياً على كبرياء الله وجبروته.. وإذن لابد أن الله قاصمه لا محالة مهما حاول التهرب من هذه النهاية البائسة.. وهو من ناحية ثانية يشكل تحطيماً تاماً لأسس العلاقات الإنسانية وإفساداً عبثياً للحياة البشرية ينخر أساساتها القائمة على العدل والتعارف والتعايش والحوار ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص آية: ٨٣].

فمتى توجهت أمة إلى سياسة العلو والفساد في الأرض عمت فيها سنن الله التي لا تتخلف: ﴿ ...أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء آية: ١٦] مهما بلغت من القوة المادية أو التقدم التقني؛ إذ إن هذه السنن عملت عملها من قبل في الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية البريطانية وأخيراً الإمبراطورية السوفياتية، وهي لن تتخلف عن العمل كلما حان الوقت، وَوُجد العلو والفساد في الأرض لدى أمة من الأمم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء آية: ١٧]... ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ [الكهف آية: ٥٩].



تحدي الهجمة على رسول الله ﷺ



ليس إلا الغبار، يحاولون العبث به، محاولة منهم للتغطية على سيرتك يا سيد بني آدم، غبار ينقشع فوراً ليصفو الفضاء لك بنسمات الرحمة التي بُعثت بها، فإذا هي تتحول في قاموسهم لعنات تلطم وجوه راسمي الصور وناشريها.. أما أنت يا رسول الله فبعين الله وعلى عينه محروس ومحفوظ، لن يضروك إلا أذى، إذ يتحول الفعل عندهم إلى عجزٍ، يسكن ديار أولئك الجاحدين في دانمارك وغيرها من القارة، المصدرة أبداً للحروب والإرهاب، منذ وجدت وحتى هذه اللحظة، فهم من عجزهم عن مواجهة الهدى الذي جئت به، والرحمة التي سكنت كلماتك وأفعالك، ومن بعدك أمتك التي لم تشتهر بشيء في العالم أكثر من اشتهارها بسيرة التسامح والرحمة والعفو، تلك السيرة التي أبقت - على مدى أربعة عشر قرناً – كل تلك الإثنيات والمذاهب والملل حية، تعيش جنباً إلى جنب مع الكثرة الكاثرة السائدة في ديار الإسلام بأمنٍ وأمانٍ وتساو في الحقوق والممارسة والشراكة، حتى إنك لا تكاد تفرق في وطن الإسلام بين مواطن وآخر، رغم اختلاف العرق أو المذهب أو الاتجاه. أقول: إنهم من عجزهم، ذهبوا يسقطون خلقهم وما بهم من إرهاب عليك، في حين أنهم هم الذين زرعوه في كل أرجاء الأرض، حروباً وقتلاً ونهباً وظلماً غير مسبوق في الأرض. وإذا شئت فانظر إلى تاريخهم الكالح منذ الرومان وحتى الطليان والفرنسيين والإنكليز، وما أدراك ما الإنكليز الذين ما تركوا فعلاً استعمارياً شائناً إلا اقترفوه في بلادنا. ألم يزرعوا في أرضنا المقدسة كياناً هجيناً، إذ شردوا أهلها من العرب المسلمين لحساب شراذم أتوا من الآفاق، فادعوا ملكية أرض مباركة زوراً وبهتاناً، اعتماداً على خرافات صهيونية خرقاء... كتبوها بأيديهم وادعوا أنها منحة من الله.

- يرمونك بالإرهاب...؟! وفي وجهك تلمع أنوار الصباحات الندية ومن بين أعطافك تنسل الرحمات والسماحة، لتنداح في الأرض عناية فائقة بالإنسان، ورحمة فائقة بالحيوان، ولطفاً بلا حدود بالحجر والشجر والنبات. ألست أنت الذي أمرت صاحبك نُعيم أن يقف حاجزاً أمام كلبة

وجرائها، حتى لا تدوسها الكتائب الفاتحة لمكة؟ ثم ألست أنت القائل وقولك وحي- ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ٤٤] «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها...» متفق عليه. ولقد جاء في الكتاب الكريم الذي نزل عليك وحياً من الله، ليوجهك إلى العناية بالإنسان وحقه في الحياة وليقول لك أن هذا الإنسان له حرمته الغالية على الله ربك مرسلك ومربيك على عينه، وذلك بقوله جل وعلا من قائل: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، أو لست أنت الذي وجه جيوشه إلى الابتعاد عن قطع الشجر أو تخريب النبات، كما وجهها إلى الحذر من قتل النساء والأطفال وغير المحاربين، وكذلك العباد في مناسكهم وصوامعهم...؟ ثم ألست أنت الذي وجهت وبينت أن حرمة النفس المؤمنة أعظم عند الله من حرمة الكعبة، وهي من أقدس أقداس المسلمين؟

- ويرمونك بأنك دعوة سيف، وهم في رميهم هذا يحصدون الهشيم، ويدخلون دهاليز النفاق، ويعتمرون طاقيات الخفاء، ويختبئون خلف فعالهم هم، في عملية إسقاط خادعة زائفة، لا يستطيع عقل سليم أن يتحمل هزلية هذا الرمي، وهم الذين يقتلون يومياً مئات البشر في العراق وفلسطين وأفغانستان غيلة وغدراً. إنه من نور نطقك أينع الهدى في العالم، فمسح بيده الطاهرة على ظهر البسيطة، فانمحى ظلام النار المجوسية، وانهزمت فلول انحدار الأخلاق الرومانية وإرهابها للشعوب، وتيتّم الظلم في الديار التي كان يسكنها، وتفتحت أزاهير الآيات الربانية، وانتمى السكان بغالبيتهم لهذا الدين، بدون سيف ولا إكراه، إذ كان السيف وما زال للظالمين، الذين استعبدوا البشر، واسترهبوهم أن يستمعوا لانبلاجة الحق، أو أن يشهدوا النور يتفتح مع قطرات ندى القرآن، تنسكب من ربانية تحمل حقائق العدل والمساواة والحرية كأصول عقدية، لا تتبع هوىً، ولا يحكمها مزاج، كما هو حاصل عند أهل القارة، باعثة حروب الظلم، وموقدة حضارة الهيمنة والغطرسة والاعتداء على كل ممتلكات الآخر المادية والثقافية والخصوصية وذلك بصيغة أنانية شوهاء، لا ترعى إلا ولا ذمة للإنسان.

- إنهم حين يرمونك بالسيف، ويرمونك بالإرهاب، إنما يتواطأون مع الزيف، ويتخفون خلف الأقنعة، التي لم تستطع يوماً أن تخفي حقيقتهم، التي تتبدى من بين السطور الخادعة، حيث يحاولون عبثاً أن يغطوا بها أزاهير عدل الإسلام، وفوح عطره، وضياء كلماتك وفعالك، التي جعلت رجلاً عادياً من المسلمين يقول لقائد الفرس: لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. وإذن فهي الحرية الإنسانية والكرامة الإنسانية، والفوز الإنساني، المتخفف من ثقلة الطين، التي تجعلكم يا أهل الغرب ملتصقين بترابها، بمادياتها، بترفها، ظانين أن في ذلك الخلود، بينما جاء الرسول الكريم بخطة إنقاذ للبشرية، خاتماً خبر السماء بكتاب عظيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلا أن كل من كان عدواً للإنسان وقف صداً لهذه الخطة الربانية على مدى الأزمان، وعزّ على البعض ومنهم الكثير من أهل القارة العجوز وفروعها في أمريكا، أن يروا عُرى الفلاح والصلاح تنطلق من أرضٍ كانوا يعتبرونها أرض أناس همل توابع، إذ إنهم لم يفهموا معنى قوله جلّ وعلا: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» ومن هو القادر على حملها بأمانة وحماسة والتزام كامل بها.
- وها نحن اليوم نراهم يعودون إلى أصولهم القبلية الهمجية، متخفين خلف (البدلات) الفخمة وربطات العنق الأنيقة، والشعر اللامع، وتكلف المواقف الحضارية، منتفشين بأنهم من صنع التقانة الحديثة، التي بدأت أضرارها تبرز لهم قبل غيرهم، إذ إنها وإن كانت تحمل العديد من النفع، فإنها في مآلاتها كانت وبالاً على الإنسان؛ على الغلاف الجوي، وبتحويل استخداماتها المدنية إلى استخدامات عسكرية، بحيث تحولت الطائرة التي كانت لتسهيل الانتقال على الإنسان، أصبحت بأيدي التوحش أداة دمار شامل في هيروشيما وناغازاكي، وفي العراق، وأفغانستان، وفي كل الأرجاء.. وتحول الكيان الذري للمعدن إلى قنبلة تمحو الحياة من فوق الأرض، وقد جربت على الإنسان من قبل هؤلاء الوحوش.. الذين جعلوا من أنفسهم قضاة العالم، وهم لا يحملون إلا ثقافة القوة والهيمنة والسيطرة ونهب ثروات الأمم لتحظى بها شرذمات غربية شاذة، ومن ورائهم شتات

من بني صهيون، سيطروا على عقولهم وأرواحهم بنصوص ممتلئة بالحقد على الإنسان عامة والمسلم وإسلامه خاصة.

إننا هنا لا نستهين بالتقانة والعلم والتقدم المدني.. لا بل إننا نستهين بها عندما يكون استخدامها خاوياً من القيم والأخلاق والتفاعل الإنساني، والرحم التي تجمع البشر بأبيهم آدم وأمهم حواء.

- وانظر إليهم في الدانمارك ... كيف هبت صحفهم وكتابهم يرمون رسول الله ﷺ بما هو من صفاتهم وأفعالهم، ومن أصولهم ومن (DNA) الخاص بهم في هذه الدنيا، ويأتي ذلك بعد أن أعلنت الجهات الرسمية هناك أنهم استطاعوا حماية ذلك الدنيء الذي رسم الرسوم الزائفة من محاولة لاغتياله من قبل ثلاثة من الشباب المسلم في الدنمرك، ثم أعلن هؤلاء الرسميون بشكل كاريكاتوري أنهم أخلوا سبيل الثلاثة وفي سبيلهم إلى ترحيل اثنين منهم، كيف نصدق الرواية بعد هذا الإعلان....؟ هل يمكن لجهات رسمية أن تخلي سبيل من كان يحاول اغتيال شخصٍ مهما كانت صفته، قبل التحقيق معهم وقبل تقديمهم للمحاكمة...؟ إن الرواية متهافتة ولكن ما فعلته صحافتهم أبرزت ذلك الحقد الكامن على الإسلام بالذات وعلى رسوله الكريم ﷺ، وذلك بتحركٍ إجماعي للصحف الدانمركية، حين أقدمت بلا استثناء على نشر بعض رسوم ذلك الرسام الحاقد.. وكأنها كانت تنتظر إشارة لتنفث من ذلك الحقد المعبأ في الصدور.

وفي حين أن أحد مفكري الغرب يضع رسولنا الكريم في كتاب له كأول وأعظم شخصية لها مكانتها، ولها تأثيرها الإيجابي في العالم، ويقول مفكر غربي آخر (غراهام فوللر) في مقال له نشرته (العربية نت): لقد وفر الإسلام قوة توحيدية، ذات مفعول قوي في إقليم كبير، وبكونه عقيدة عالمية شاملة، فقد خلق حضارة عريضة تتشارك في كثيرٍ من المبادئ العامة في الفلسفة والفنون والمجتمع، رؤية بشأن الحياة الأخلاقية، حسن بالقضاء والتشريع والحكم الرشيد، كل هذا في ثقافة رفيعة عميقة الجذور، وكقوة ثقافية وأخلاقية فإن الإسلام عمل على تجسير الخلافات الإثنية، بين مختلف الشعوب المسلمة، وشجعهم على أن يشعروا بأنفسهم كجزءٍ من مشروع حضاري إسلامي أوسع.

وكذلك في حين يقول مفكر بريطاني كبير: "ما أحوجنا اليوم إلى رجلٍ مثل محمد، ليجد لنا حلاً لقضايانا وهو يحتسي فنجاناً من القهوة".

أقول في حين أن ذلك يصدر عن هؤلاء الكبار المنصفين تجد الكثرة الكاثرة من جهلة الغرب، تغلي قلوبهم بالحقد على الإسلام ورسوله والمسلمين، يحاربونهم بأفتك الأسلحة تحت لافتات الحرب على الإرهاب والتطرف، والحفاظ على حقوق الإنسان وهم في الوقت نفسه، يسمون القتل الصهيوني الإجرامي اليومي للفلسطينيين أهل الأرض والحق بأنه دفاع عن النفس.. وأي نفسٍ هذه؟.. إنها التي اغتصبت الأرض والعيش الآمن للفلسطينيين وأرادت لهم أن يذلوا ويخنعوا، ويقبلوا بالاحتلال والاغتصاب والاعتراف بأن أرضهم وبلدهم ليست لهم. ألا ما أعجب هذا المنطق الذي لا يستسيغه عقل ولا دين ولا قانون...!! ولكننا لا نعجب فإن الهدف عند هؤلاء هو الإسلام.. هو الرسول حبنا وزعيمنا وقدوتنا.. وإليكم أعرض برهاناً آخر على ذلك الحقد، انظر إليهم في بريطانيا كيف هبوا مسعورين ضد اقتراح عقلاني منطقي اقترحه رئيس أساقفة كانتربري، قال فيه: إنه لابد في المآل من تقنين الأحوال الشخصية للمسلمين في بريطانيا وتطبيقها في المحاكم.. وقد اعتبر المهاجمون للاقتراح أن تنفيذ ذلك كارثي، وسوف يحدث فوضى عارمة، بسبب ازدواجية القوانين، والسؤال هنا هو: لماذا يتحاكم يهود في بريطانيا في أحوالهم الشخصية إلى دينهم ومحاكمهم ولم يُحدث ذلك فوضى ولا كارثة؟!.. ثم لماذا يتحاكم المسيحيون في بلادنا في أحوالهم الشخصية إلى محاكمهم ودينهم ولا يحدث ذلك فوضى ولا كوارث، ثم انظر إليهم كيف يقفون متآمرين على شعب سورية، يقتله حاكم نذل، اغتصب الحكم وراثة، فكأن سورية مزرعة تمتلكها أسرته المجرمة من آل الأسد، فتعيث فيها فساداً وتدميراً وقتلاً ونهباً وسلباً وذبحاً بالسكاكين للأطفال والنساء والرجال.. إنهم في العالم يتفرجون بل يمنعون عن الشعب السوري الثائر أي سبب من أسباب القدرة على الحصول على الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، مع أنهم هبوا هبة واحدة ضد المسلمين في مالي. إن الإسلام هو العدو الذي صنعوا منه ومن أهله أنداداً وراحوا يسلكون كل السبل لتعويقه....!!

بصراحة أقول لكم: إنه حقد دفين يحاول حرق كل ما هو إسلامي، وكل ما يمت إلى رسولنا الحبيب محمد ﷺ.. ولكن رسول الله ﷺ لا تهزه رسوم تستهزئ بناشريها، وتضحك من حماقاتهم وضحالة فكرهم، وقلة زادهم العقلي والفكري، فهو في علاه:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهم في وحلهم يتمرغون، ويزدريهم

العالم، ويفضحهم من خلال نضحهم الأسود، كما أنه لا تهزه حملتهم في بريطانيا على مقترح رئيس أساقفة كانتربري وعلى الإسلام، ولا ذلك التحريض الرسمي في بريطانيا ليتجسس المعلمون على طلابهم المسلمين.. فإنه في النهاية لا يحق إلا الحق.

وقد قال القاضي محمد سليمان سلمان في كتابه: "رحمة للعالمين" فيه ﷺ قولاً بليغاً هو: (ولقد اجتمع في ذاته ﷺ نشاط نوحٍ عليه السلام، ورقة إبراهيم، وعفو يوسف، وانتصار داود، وصبر يعقوب، وعِزة سليمان، وتواضع عيسى، وزهد زكريا، وخفة روح إسماعيل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، وذلك كما قيل في بيت من شعر فارسي:

أنت تحتل عرش السيادة منذ الأزل...

ومحاسن الكرام كلهم قد اجتمعت فيك وحدك..)

وهكذا فالحق جل وعلا يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧].



تحدي الباطل

قـــال تعـــالى:﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨].

طـول المقـام مـع الظـالمين يغيـر الوجـوه، يغيـر الجلـود، يمسـخ الحـروف، فتخرج من أطراف الشفاه وكأنها عار المحافل، هل تحمل أيـام النفـاق والخـوف إلا مسوخاً من مواقف، أو حراماً من المكاسب.. عفواً... هذا إن كانت هنـاك مكاسب..؟ وهل تلد الأيدي الباطشة إلا زماناً من القهر والعري الأخلاقي..؟ حيـث تضـيع تقـاطيع الوجـوه، وتُمسـي الأقنعـة هـي السـائدة، وترتـاد السـاحات والشوارع والبيوت آيات الخوف، فيتجمد الحراك، وتسكن القلوب نكتـات الإثم، فـلا تعـرف إلا الكبـت، ولا ترضـى إلا أحـرف التـدليس والنفـاق، وهنالـك ثـم المـوت.. مـوت المجتمعـات، مـوت الهمـم، مـوت الكرامـات، ويبـدو الحـج إلـى قصور الظالمين افتخاراً، وتصبح الإقامة في مساكنهم اعتزازاً، وتكون مقايضـة الرجولـة بالـدراهم والمناصـب الزائفـة شـطارة وسياسـة واحتكـاراً، وذلـك كلـه ليصبح الجمع مثل قطيع متعب يجوب السـهول ولا يرعـى، لأن الجـزار فـي المقدمة وعلى رأس القوم، يلوح لذلك الجمع بالقدوم على النطع، إن لم يروا أنـه الوطن وأنه الخير كلّه وأنـه السيادة والكرامـة والمستقبل، وويـل للقطيـع إن هـو شعَرَ بأنه شعب له حقوقٌ تمتد من قبل وجود هذا الجزار ولا تنتهي عند حـدوث غوايات الشيطان.

ألم تسمع نائب وزير خارجية بشار الأسد (المقداد) يقول في تلفزيون سيده يوم الثلاثاء ١٦/٤/٢٠١٣ إذا ذهب الأسد انمحت سورية من الخارطـة..؟!!!.. إن كنـت لـم تسـمع، فـاقرأ إذن هـذا الهـزال وهـذه النذالـة والضـحالة وانمحـاء الشخصية الوطنية والإنسانية.. وقهقه!

أتذكر نـبض الحيـاة المفعمـة بالكرامـة..؟ أم أن الشيطـان أنسـاك..؟ إن كنـت تـذكر ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾... لأن مقامـك معهـم لـن يسـعفك على استدامة الـذكرى، ولتصطف اللحظـة مـع الحق، مع الكرامـة، مع إشـراقة شـمس الصـحوة، ولا يغرنـك ضـجيج القـوم الفاسـدين المفسـدين، يجتمعـون فـي

محافل ما يسمى بمجالس الشعب..! لأنك شاهدت بأم عينيك أشباح رجال، في مجلس الشعب السوري، همتهم أنفسهم المسكونة بالنفاق والخوف والقهر، ومن ثم بالوهم الذي صنع لهم إلهاً من تمرٍ ذات يوم، وها هم اليوم أوشكوا على الإقدام على أكله وركله والتخلص منه بصفاقة ودناءة وقلة عقل، يتبارون جميعاً في تقديم أهازيج الجُبن بين يدي الجزار.. لعله يحنُّ بنظرة عطفٍ عند الذبح.

والمفارقة الكبرى في تصرف هؤلاء القوم أن كبار الفاسدين المفسدين بين ظهرانيهم يمرحون، وفي ساحاتهم يترددون، وعلى قاماتهم يدوسون، ولكنهم المبُجلون الذين يأمرون المجلس، فينطلق أفراده المرعوبون، يدبجون المقامات النفاقية في ذم من لم يكن الواحد منهم يستطيع رفع عينيه في وجهه، فقد مضى أكثر من أربعة عقود وهم يدبجون المديح له، ويحنون الهامات لطلعته، وينشدون كلمة رضى من بين شفتيه، فلما أن تخلص بعضهم وهم كثر من ضغوطات السلطات (المافيوية) ووجد نفسه خالياً من هموم القهر عندما دخل في ثورة عارمة من كرامة وحرية وعدل وتقدم بعريضة اعتراف وعودة، ودعوة لإنقاذ البلد سورية وعودة مظفرة إلى الناس، وبغياب غيم القناع عن وجوههم، عادت لهم شخصياتهم الإنسانية السورية العربية غير المتقوقعة في أحضان حزب صورة، وسلطة هاوية للتخريب وشخصنة كل شيء في فرد غير مؤهل لقيادة أو لإدارة بغير أزمات. لما كان ذلك كلّه وانطلق هؤلاء ينطقون بالحقيقة المرّة، ويعترفون للناس بالخطايا والرزايا التي حلّت بالوطن من سياسة استمرت خمسة وأربعين عاماً، تكيل بمكيال التفرد والقمع والقتل وشراء ضمائر الناس بالنهب والسلب المسكوت عنه.

ولما بين أحدهم أن رأس الهرم في سلطتنا غير مؤهل لهذا المكان بانفعاليته وتسرعه وعدم قدرته على فهم ما يدور حوله، ولما أشار إشارة تشبه التصريح إلى الهوية الطائفية للسلطة، وذلك من خلال اتهامها للحريري رحمه الله بأنه يجمع طائفته حوله «يعني بذلك الطائفة السنية في لبنان»، ولما بيّن مقدار النهب والسلب لثروة الشعب السوري الذي يقوم به أهل السلطة والمقربون منهم. لما أن فعل ذلك كله وخرج عن الاتفاق الصامت بين المتسلطين على رقاب الناس في سورية، ذلك الاتفاق الذي تمت من خلال استمراره كل الجرائم بحق الوطن والمواطن على مدى أكثر من أربعة عقود، عندئذٍ هبت جموع مجلس الردح السوري تضرب بعمى عجيب كل مقومات الأخلاق والمنطق والعقل، بل وكل الأسس التي يجب على المجلس اتباعها في مثل هذه الحالة، ولا عجب في ذلك عندنا لأننا نعرف ماهية هذا المجلس

ومهمته في التغطية على كل الخطايا السلطوية وتمريرها على الشعب. فأين يقف ذلك المجلس اليوم..؟ وقد رأيناه على شاشات التلفاز يصفق أفراده كالبلهاء لحاكم نصف مجنون لا عقل له؛ فهو يقتل ويدمر، ويذبح الأطفال، ويهتك حرمات الحرائر، ويقضي على الحياة في سورية بالسلاح الذي اشتراه الشعب السوري من دمه وعرقه، كي يكون عاملاً على تحرير الجولان الذي باعه أبوه حافظ الأسد بيعاً للصهاينة أو كما يقول أهل سورية: (سلمه الأسد للصهاينة مفروشاً) إنه يقف (المجلس) خلف المجنون الفاشل بشار الغريب عن سورية وعن العرب. إنه الصفوي المخبول.

واليوم وعندما يشهد شاهد من أهل تلك السلطة في سورية على مدى الخراب الذي أحدثته فيها وفي لبنان وذلك من خلال صحوة ضمير وندم على ما فات وإن كان مشاركاً فيه، وبدلاً من أن يحال كل الكلام الذي قاله والناس الذين وُجهت إليهم إلى التحقيق والتدقيق، للوصول إلى الحقائق ومعرفة المزيد منها، ووضع اليد على أسباب تدهور سورية والمسببين كائناً من كانوا، بدل ذلك تنطلق من مجلس الردح حملة شعواء، تريد أن تكون قنبلة دخان تخفي الحقائق، وتسدّ الطريق على كل من تسول له نفسه سلوك التوبة والمراجعة. إلا أن أمرَ الله ماضٍ. والمؤمل أن تتداعى كلُّ القوى الشريفة للوقوف لحظة صدقٍ مع النفس، وذلك ليظهر الحق ويبطل الباطل، وتكون نصرة لشعب سوريةً، وذلك كي ينهزم الباطل الذي ظل يتحكم بمصائر الناس منذ أربعة عقود ونيف:

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف آية: ٢١].



تحدي هرطقات العالمانيين



قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ آية: ٢٨].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء آية: ١٠٧].

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام آية: ١٢٤].

ما الذي تخفيه هذه الضجة..؟ كأنما يريد بعضهم أن يعوم العالم في بحرهم، فهم يتكلمون ويتخبطون ويتظاهرون، ليقولوا للمسلمين جميعاً نريد أن نمتلك كل شيء لديكم؛ عقيدتكم، ثروتكم، هويتكم، أرضكم، وإن لم ترضوا.. فنحن مشدودون خلف شعاراتنا: هذا العالم لنا، هذا العصر عصرنا، فإما أن تضعوا أنفسكم في خدمة هذا القول، وإلا فعالمانيتنا من أمامكم، والقنبلة مشدودة في المدفع تنتظر الضغط على الزناد، وعولمتنا محيطة بكم، فأين المهرب...؟

ما الذي تخفيه هذه الضجة..؟ فمرة تظهر على شكل علمانية تقمع حرية المرأة المسلمة بلباسها في فرنسا (الأنوار)! وفي بعض دول (الحرية) في أوروبا.. ومرة تأتي على شكل سخرية واستهزاء واستهتار بأعظم رمز إسلامي، وذلك على شكل رسوم بذيئة منحطة، خطتها يد قذرة نجسة في الدانمارك، وحاول الأوروبيون (الأحرار)! تعميمها عملاً بعولمتهم الخبيثة المريبة.. إنها رسوم ذلك الهالك الذي تغمده الله في الجحيم جزاء محاولته إيذاء رسول الرحمة المهداة:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء آية: ١٠٧].

ومرة تفاجئنا تلك العلمانية بمنطق عجيب غريب، يصدر من بعض أتباعها في تركيا، أولئك الذين جعلوا من (هرطقات) أتاتورك ديناً جديداً قديماً، يقدسون كلماته، ويسطرون لمحاكاته (طلسمات) ليست من العصر، ويبنون لأصنامه محاريب عبادة، يُشيدون للحرية والديمقراطية مذابح، يقتلون فوق نطعها الحياء، ويجهزون في ردهاتها على كل نظرة للتقدم، من حيث أنهم يدعون العلمانية والحرية والحداثة، وما يسوءهم أكثر أن نصف أعضاء الحزبين

العلمانيين الأكثر تطرفاً (حزب الشعب الجمهوري، وحزب اليسار الديمقراطي يؤيدون إلغاء حظر الحجاب).

لقد رضي المعتدلون من الأتراك، الموثوق بخلقهم من قبل الناس، والموثوق بنظافة أيديهم من قبل الجماهير، والموثوق بقدراتهم الإدارية وجديتهم في عملية التقدم للمجتمع التركي، أقول: لقد رضي هؤلاء المعتدلون بالدستور العلماني، وباحترام صنم أصحاب الهرطقة العلمانية، وبنصف الديمقراطية المراقبة من قبل الجيش (حارس الهرطقة)، وذلك أملاً في عمل شيءٍ من أجل تقدم تركيا، ورفع مستوى الشعب التركي، ومن أجل إزاحة الآثار السلبية للمديونية الهائلة، التي حملتها لتركيا تلك الأحزاب الحاكمة العلمانية من اليسار إلى اليمين، خلال الخمسة العقود الأخيرة من حياة الأتراك، ومع كل ما قدمه المعتدلون (من حزب العدالة والتنمية) ومن رفعٍ لمستوى المعيشة للشعب التركي، الذي أقر بتحقيقه العلمانيون قبل غيرهم، ومن رفعٍ لسعر صرف الليرة التركية ومن خدمات بلدية وحكومية غير مسبوقة، من رفعٍ لمستوى الحريات العامة التركية، مع كل هذا الذي قدم وغيره، يأتي المهرطقون العلمانيون اليوم ليهيجوا الناس وليثيروا قضية (أسلمة) المجتمع التركي، على خلفية السماح للطالبات التركيات المحجبات بالدخول إلى الجامعات، مع أن هذا حق طبيعي لهن، فإن تلبيس كل امرأة ما يناسبها وما يناسب معتقداتها، هو الأمر السديد الرشيد ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق آية: ٣٧].

إنهم لا يريدون الحرية.. إنهم يريدون شيئاً آخر، يريدون لتركيا أن تبقى مكبلة بحديد مناهضة الأمة لعقيدتها وتراثها وتاريخها، ذلك الحديد الذي يُراد له أن يعيث بميراث الحبيب محمد فساداً وإفساداً، لأن أسيادهم لقنوهم أن هذا الميراث هو الذي يحول بينهم وبين الاستيلاء الكامل على مقدرات الأمة لكن: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

إن الشعب التركي بمجمله – إلا قلة قليلة – استجاب لنداء الله، ولدعوة رسوله على الأرض، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ آية: ٢٨].

فكان أكثر من ٩٩% من هذا الشعب مسلمين موحدين، ولقد لحقتهم

الصحوة كما لحقت بكل المجتمعات، فبينما كنت تحتاج في الولايات المتحدة أيام الستينات والسبعينات من القرن الماضي أن تركب القطار لمدة ساعة أو ساعتين، لتلحق بمسجد تقام فيه صلاة الجمعة، فإنك اليوم تجد المساجد إلى جانبك تقيم صلاة الجمعة، فتذهب إليها على قدميك، أو خلال دقائق بسيارتك، وأصبحت هذه المساجد تغص بالشباب من أهل الصحوة المباركة المعتدلة المهتدية، فهي تلهج بحياة المبعوث رحمة للعالمين حباً وتكريماً وافتخاراً وانتساباً عملياً لا قولياً وحسب، وها هي في هذه اللحظات تقيم الاحتفالات والمهرجانات والمحاضرات ابتهاجاً بمولد الهادي، الذي أنقذ الناس وأخرجهم من الظلمات إلى النور بأمر ربه، وسبحان ربنا القائل في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة آية: ٢٥٧]، ولكن الذين لم يستمعوا وينصتوا للنور الذي أرسل به محمد ﷺ يترددون في الظلمات، مهما بلغوا من علوم الدنيا وتقنياتها وهم الذين يقول الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة آية: ٢٥٧]. ولن تنفعهم علمانيتهم ولا حداثتهم المزعومة، ولا عولمتهم الخائبة، التي ترتد على أمريكا اليوم خسراناً وتدهوراً وركوداً، جزاء ما فعلت يداها في العالمين.. فطواغيتهم هذه التي صنعوها ليكتسحوا بها العالم، ترتد إلى نحورهم، وها هو محمد ﷺ يتلألأ في يوم ميلاده، مزهواً بدعوة ربه، المتقدمة للعالمين بالعدل والنزاهة، مرتفعاً صوته من خلف القرون بكلماته الفذة: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه». رواه مسلم.

فهو يرد بذلك على هؤلاء الخراصين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ يتلونون في ديارنا بشتى الألوان، فهم (كما هم في تركيا) يعلنونها صريحة: إنهم لا يريدون لبلادهم أخلاقاً ولا إسلاماً ولا تقدماً، بل هم يريدون القعود عند القبر الذي رسم لهم صاحبه قواعد الالتصاق بالأعداء، مهما تغيرت الأزمان والظروف والأمكنة.. فهاهم في مصر رأينا منهم العجب العجاب.. لأن مصر بشعبها المؤمن رفعت إلى سدة الحكم رجلاً وجماعات ترنو أبصارهم إلى أخلاق وصحوة تتخذ من نور المصطفى نبع تقدم وحضارة تأخذ مكانها السامق في العصر.

في حين أن بعضهم في أماكن أخرى من ديار العرب يظهرون الحرص على الأمة، وأنهم إنما يبتغون لها الخير، لكنهم في المآل يحاولون تسفيه الحركات التي تحمل الإسلام الوسطي، وذلك تحت لافتة مفكر إسلامي، وهنا أسوق كلمة واحد من هؤلاء، نُكن له الاحترام ولا نظن أنه يندرج في هذا الصف إلا أنه وقع في مقالاته مؤخراً في حفرة التحليل العائم على السطح، متهماً تنظيماً إسلامياً مقاوماً في فلسطين بأنه نجح فيما لم ينجح به البريطانيون والصهاينة والبعثيون، بحيث شقوا الحركة الوطنية التحررية الفلسطينية، وشقوا الجمهور الفلسطيني... وأكملوا جهادهم من أجل فلسطين بالاستيلاء على غزة... وأنا هنا لست في معرض الرد عليه، بل أريد أن أذكره فقط بأن الذي شق الصف الفلسطيني هم أولاء الذين رفضوا نتائج انتخابات ٢٠٠٦، وظلوا يعملون مع الأمريكان لإسقاط حكومة الوحدة الوطنية التي أقرها اتفاق مكة، وذلك عبر الفوضى والفلتان، والتحضير لانقلاب على تلك الحكومة وقتل كوادرها الإسلاميين، (كما أفصحت عن هذه الخطة مجلة أمريكية واسعة الانتشار)، إذ قالت تلك المجلة: إن حماس لم تكن تريد الاستيلاء على غزة، ولكنها استبقت انقلاب دحلان – دايتون) الذي كان فيه القضاء على الحراك الإسلامي الفلسطيني بأسره. إني أذكره بذلك فقط، وأنا على يقين بأنه المسلم الذي يقف بين يدي ذكرى ميلاد سيدنا وسيده وسيد العالمين المبعوث رحمة للعالمين، مراجعاً متأملاً حريصاً على نبذ كلمة خرجت من فيه لا راد لعواقبها الشديدة عند الله إلا بالرجوع إلى الحق في الكلمة المسؤولة ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات آية: ٢٤].

تحدي حمل معاني الهجرة ووجود أمة ومجدها



قــال تعــالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد آية: ٣٠].

ولطالما عشقت الذكرى، والتصقت بصاحبها عليه الصلاة والسلام.. في مجده، في علوه، في سموه، في عظمته، في انتصاره، في زهو الكلام وغدقه، يخرج من بين شفتيه الكريمتين، نقلاً عن ربه جلّ وعلا. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم آية: ٣- ٤].

ولطالما سرنا وسارت الأمم على الدرب الذي اختطه فهو نور عميم يسيل من بين يديه، فيملأ البطاح والآكام مواكباً من ضياء ليصنع منه أمة، قادت الأنام قروناً، ينبثق من عرينها العدل والقسطاس المستقيم، ليشكلا أفقاً مفعماً بحلم الإنسان الأبدي، وتطلعه أبداً إلى الحياة النظيفة الآمنة، وهي التي عمرت بها الأرض طالما ظلت آفاق الهجرة ومعانيها الفذة حاكمة نافذة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران آية: ١١٠].

لقد عاند النور الذي انبثق من بطاح مكة أكثر أهلها، فكانت جباههم مثقلة بالكبر، الذي سكن قلوبهم آماداً طويلة من الزمان، فعز عليهم أن يكون الفقير منهم هو الداعية للدين الجديد، لكن فُجر الكبر لا يصمد أمام انبثاق الحق، من بين دفتي ظلم حوالك، عملت على هدم الإنسان، وأعلت من قيم الجهل، وغرست في أنحاء الجزيرة سواداً لا يكاد ينقشع إلى أن ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء آية: ٨١].

وتمددت أمة النور المنبثقة من بلاغ جلّ في علاه الجاري على لسان محمد

بن عبد الله ﷺ، وكانت الهجرة خطة ربانية غيرت وجه الدنيا المعتم العابس المتجهم ليشرق الكون بنور الكلمات القرآنية، رحمة وهدى وعدلاً ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء آية: ١٠٧].

وحمل العرب ذلك النور الكاشف إلى العالم، وانتسب الأكثر منه في ذلك الوقت لهذا الدين، فبزغ من خلال ذلك وجود أمة، جبهتها سطوع الشمس، تلامس القلوب والشفاه والأرواح والعقول بإضافات فذة إلى الحياة، التي كانت من قبل آسنة راكدة، راقدة فوق أنين المستضعفين الخافت المغيّب، وآمن من آمن، وجحد من جحد، ومن جحد ظل يُكن الحقد لهذه النظافة، وينتهز الفرص لينقض على الضياء، محاولاً إطفاءه بنفثاته ونفخات صدره الذي كان يغلي حقداً وحسداً وانغلاقاً، ولقد امتد الجحود حتى يوم الناس هذا، إذ دخل أصحابه الصغار قيعان الضلال، متلبسين ثياب الناصحين، المبتغين التغيير والإصلاح، لكنهم لم يدركوا أنهم لا يخفون على أحد، فلحن القول الذي (يرطنون به) تبدى خبثه لكل ذي بصيرة، من خلال حروفهم والفعال، كارهاً ارتفاع الأمة، مكناً لأجيالها الضياع، محاولاً منع انبثاق معاني الهجرة الفذة من جديد، تلك المعاني التي حملت معها خصب المعرفة العصرية النابهة، مرتقية بأهلها إلى مصاف حاملي رايات النصر والغار، عارضة جمال شموخها، وحسن الأداء والفعال في السوق العالمية، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حفل التنكر الدامي، الذي تديره قوىً آلت على نفسها أن تقتل فرح الأطفال، وتُعوق مسيرة الإنسان بالدمار والضلال، المتخفيين خلف قناع التقانة والعلم وحق الإنسان وتحرير الأوطان، وكلها لافتات تحمل الكثير من الزيف والختل والدوار ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف آية: ١٠٢-١٠٣].

ويمكننا القول: إن أصحاب الجحود المعاصرين الصغار يتبدون لنا اليوم بطريقتين، طريقة يُظهر أصحابها أمرهم وسرهم بصورة مباشرة، لأنهم يعتبرون أن لا حاجة للتخفي اليوم خلف الكلمات الملتبسة، فالقوى العالمية معهم، والضلال المتعلق بأذيال إبليس المعاصر يؤزهم، ويمنيهم بالتمكين، وأما أصحاب الطريقة الثانية، فهم الذين يلوذون بغموض الكلمات، ويستنجدون ببعض التصرفات المعزولة، التي تصدر عن قوم أخلصوا النيات تجاه معاني الهجرة، ولكنهم أخطأوا الطريق بفعالهم والفتاوى الجاهلة، وذلك كي يثبت

الجاحدون بهذه الطريقة أقدامهم في الساح بخبثٍ على أنهم ليسوا خارجين من السرب، إنما هم يشهرون سلاح تغيير الحاضر ابتغاء التقدم.

وأنت ترى أن الفتنة الأولى هين أمرها ضعيف تأثيرها، بل قل إن هؤلاء وأمثالهم لا يُزرون إلا بأنفسهم ولا يكادون يقنعون حتى أنفسهم بما يقولون، أو يعبرون عنه برأي فطير، وهو قول تجاوزه الزمن، بعد أن استعادت حركة الإسلام المعاصرة ألق الدعوة، وشموخ البنيان الذي أقامته مبادئ الهجرة، وبثت تفاعلاته في كيان المجتمعات المسلمة، ومن ثم انتقلت به ليحرك المجتمعات الأخرى غربية وشرقية، وهكذا فلم يعد يأبه لمقولات هؤلاء الجاحدين الصغار إلا قلة منبوذة موقوذة، تتزيا بزي الحداثة، وتدعي أنها النخب وأهل الثقافة والتقدم، غير أنها لا يبتلعها ذوق سليم، ولا يقبلها عقل قويم، ولا يعدها الناس إلا أنها من طينة غريبة لا يجد القائل بها إلا كل إعراض وذم وعزل.

كما أنك ترى أن الفئة الثانية التي تتخفى خلف الغموض واللافتات العصرية المموهة هم الذين يشكلون الخطر الحقيقي على مسيرة الإصلاح والتغيير والإنقاذ، وذلك بالذي يختبئون خلفه، ويتلبسون به، ويحاولون من خلاله اللعب بالبيضة والحجر، كي يجذبوا المشاهدين، ويلهوا السادرين، ويكسبوا العابرين، وهم يكفيهم حسب تخطيطاتهم أن لا يذهب الذاهبون إلى دعوات الفلاح الحقة، وذلك ليبقى من لا تجذبهم لافتاتهم في ضياع، وليكن بعد ذلك ما يكون من محاولاتهم تعويق الإنقاذ وإبقاء الأمة في حالة من الحيرة والارتباك، لا ترى لها طريقاً، ولا تتعرف لها على سبيل للنفوذ إلى مواقع الإنجاز والحضور: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ .



التحدي في توظيفات رمضانية



من يقذف في هذا القلب التقوى..؟ من يصنع من هذا الإهاب رجلاً مراغماً..؟ من يلاقي القلوب عند نقاط التماس مع الشهوات فَيُصَلِّبُ فيها المقاومة..؟ من يجعل من هذه الأفئدة أوعية للوعي، تدفع الأجساد إلى سوح المجد راغبة "جاهدة مجاهدة"..؟ من يدخل العقول في وعي قول رب العزة في كتابه العزيز: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ [التوبة: ١٢٠]. من يهدف إلى صنع الرجال الذين شعارهم قول ربهم جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت آية: ٣٠].

من يا ترى يصنع كل هذه المعجزات، ويدفع بها لتحلق في أرواح المؤمنين بشموخ عجيب..؟ من يلمح التقوى على ناصية رمضان تنتظر ولا يبادر إلى العناق؟ ومن يكتشف سر مراغمة كل ابتعاد عن عين الله في السلوك الرمضاني ولا يهرول إلى الالتحاق بالمدرسة القرآنية الرمضانية..؟

إن العدل الكامل يقتضي من المؤمن العاقل أن يتشبث بكل عزيمة تجعله يمسك بأطراف المجد الذي يبعثه رمضان الجاهد المجاهد.. ألم تكن كثرة من غزوات رسول الله ﷺ في رمضان المحطة الفذة على طريق البناء النفسي والجسدي لرجال بعثوا أمة من وديان النسيان، إلى حضور يقرع الظلم والظلام، وليثبت في النهاية وجود هذه الأمة منقذة للإنسان من براثن الضياع، ومن مخالب الركون إلى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وظلموا البشرية معهم..؟ أليس هذا التوظيف الرمضاني في حركة الحياة الإنسانية جدير بالاحتفال.. ونحن اللحظة نقف في مواجهة الأفق الرمضاني ننتظر الهلال، وها هو المَلَك الرباني ينادي: (يا باغي الخير أبشر، ويا باغي الشر أقصر..) حديث صحيح.
ولكن فيم التوظيف لرمضان وما أهميته بالنسبة لأمتنا أولاً ثم للبشرية ثانياً..؟

إنه عندما قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر مبارك، افترض الله عليكم

صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم» رواه أحمد والنسائي والبيهقي.

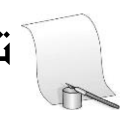
إنما بين أن الله جعل في هذا الشهر محطة للصلاح وإعادة النظر في المسيرة الإيمانية، كما جعل من هذه المحطة زمناً صالحاً وآمناً للتفكير والإصلاح، ووضع النفس على خط تسير فيه على قواعد قويمة سديدة، ينتفع منه الفرد، وينتفع منه مجتمعه، ثم تنتفع منه البشرية جمعاء.. لقد وضح رسول الله ﷺ أن الله في هذا الشهر الكريم يهيئ الوسائل "اللوجستية" التي تساعد العبد وتوظف له الزمان والمكان والأدوات الصالحة لإعادة البناء النفسي والأخلاقي والسياسي لحياته.. إذ فيه تغلق أبواب النار التي تخيف وتيئس، وتفتح أبواب الجنة التي تفرح وتحيي الأمل، وتصفد الشياطين والدواعي والمغريات التي تبعثها، وإن كل هذا الذي ذكرنا يلاحظه ذوو الفطنة من الناس، وذلك من خلال الإقبال الكبير في مجتمعاتنا العربية والإسلامية على الله في هذا الشهر الكريم، فالمساجد تمتلئ والأرحام توصل، والعلائق والوشائج تنتعش والحماس للتغيير والإقبال على الآخر كأنما تنبعث من جديد... ولذلك جاء توجيه رسول الله ﷺ وتعليمه للمؤمنين إذ يقول لهم: «قال الله عز وجلّ: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، ولا يجهل، فإن شاتمه أحدُ أو قاتله فليقل إني صائم مرتين...» رواه أحمد ومسلم والنسائي.

وإذن فتوظيف رمضان توظيفاً معداً له ومخططاً من قبل الجميع الرسميين والشعبيين يمكن أن يحصد منه الجميع الجوائز العظيمة:

- فردياً ونفسياً، إذ يتسامى الأفراد، وترتفع حصيلة أخلاقهم، وتندفع فيهم عاطفة حبّ الآخر والحدب عليه والرغبة في مواصلته، كما أن هذا التوظيف على هذا المستوى يصلب الإرادات الفردية، ويبعث فيها مقاومة الشهوات، وحب التضحية والبذل والاستجابة للداعي العام، وتخنس فيها الأنانيات المرذولة، وفي كل ذلك يكمن خير كثير.. إذا غُلب هذا التوجه وأُخذ بوصايا رسول الله ﷺ التي وردت في الحديث أعلاه.
- مجتمعياً.. وبما أن المجتمع يشكله مجموع الأفراد فيه، فإن مجتمعاً يشكله أفراد انتفعوا من توظيف رمضان فيهم، والتزموا بما نادى به

رسول الإسلام ﷺ لهو مجتمع صالح بعمومه، متقدم بعروضه النفسية والإنسانية والخيرية، وإنه لمجتمع ممانع للشر، مقاوم للذل، دافع للعدوان، راعٍ لأفراده وحياتهم وحرياتهم وحقوقهم الاجتماعية والسياسية والحياتية، لأن الإنسان المتخلص من أنانيته... يكون مخلصاً لجوه العام متعاوناً أتم التعاون مع الرأي العام، مندمجاً أخلاقياً وسياسياً واقتصادياً مع المجموع، ومنسجماً بذلك كله مع نفسه متطلعاً أبداً إلى الحرية والتحرر من أي قيدٍ إلا عبوديته لرب العالمين.

- فإذا ما وظف رمضان وأخلاقه في كل المجتمعات وجدت الجوائز الإنسانية كثيرة، تعمّ الحياة البشرية، وذلك من خلال التعايش، واعتراف المجتمعات والحضارات والأمم بعضها بالبعض الآخر، ووجدت شياطين الإنس تصفد، وتلجم نواياها المدمرة، وتخنس سلوكياتها المنفلتة، وتقاوم محاولاتها للهيمنة.. فهي لن تجد حينئذٍ مجتمعات قابلة لطموحاتها الشاذة، وسوف لن تجد تصرفاتها في نفي الآخر ونهبه واستعباده إلا الصد والإعراض، وبذلك يتراجع العدوان والحروب إلى أدنى الدرجات، وتسود سياسة التعايش والتجاور والتواصل بين الأمم والحضارات.



تحدي وسائل الأعداء



قـــال الله تعـــالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف الآية: ٨].

أ- ليس إلا الاحتكام إلى عدلك أيتها الكلمات الربانية المعجزة، إن الذي بيننا وبينك كالذي بين الورد والشذى... فأنت الورود ناضجة يانعة نضرة، ونحن حملة الشذى، وأنت الزنابق الندية، ونحن تألق وجنتيك بين الورى... أنت النسغ المتواصل الإمداد، ونحن المرتوون على المدى، أنتِ المتفضلة، ونحن الذين نحمل النعم تهبينها، فتصفوا الأرواح، وتحن إلى حواصل طير خضر ترود رياض الجنة، وتشتاق أبداً إلى استيعاب: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، تلك هي كلمات الضياء التي تشعل فينا أبداً فتيل الأمل، وتقدح في حنايانا زناد الهمم، ومن هنا جاء ثباتهم على العهد في الزمن الأول حين ادلهمت الخطوب، واجتمعت الفتن، وانتشر الضلال، واستمر القتل والظلم، إذا كانوا: «يفهمون هذا قديماً، ويعملون له، ويحملهم إيمانهم على التضحية في سبيله، أما في هذه الأيام فقد تفرق المسلمون في فهم مهمتهم، واتخذوا من التأويل والتعطيل سنداً للقعود والكسل؛ فمن قائل يقول لك: مضى وقت الجهاد والعمل، وآخر يثبط همتك بأن الوسائل معدومة، والأمم الإسلامية مقيدة، وثالث رضي بكلمات يلوكها صباح مساء، وقنع من عبادته بركعات وقلبه هواء» كما قال الإمام الشهيد حسن البنا – رحمه الله – في كتابه الرسائل ص ٤٢.

ب- وأضيف إلى قول الإمام قولاً يتضمن أنواعاً من الناس جدت في الساحة، فأقول: ورابع رضي لنفسه ان يدور في فلك المنبطحين في المعركة مع الأعداء، فراح يردد مقولات هم نسجوا له سداها ولحمتها كي يحصلوا على استسلام بلا عناء، وذلك حين وصف الإعلام الذي ينقل نبض الشارع المتحرق للقاء المعتدين في ساحات الوغى والشهادة بأنه إعلام مخطوف من قبل الجهلة، وليس ما ينقله سوى

دائرة جهل، ولكنه نسي أن يخبرنا من أين جاء بكل الفهم الذي جعله ينتقل من رئاسة تحرير دورية متغربة إلى رئاسة أخرى شبيهة بنهجها، ظناً منه أن الناس تغيب عنهم الحقائق، مع أننا في عصر الإنترنت، والمعلومة المتدحرجة، ولم يعلم أن الناس تعرف حق المعرفة أنه ليس كل ما يلمع ذهباً.

ج-لقد أخرج الله هذه الأمة للناس، وجعلها خير أمة، وذلك لأنه كلفها بحمل كلمته الأخيرة إلى البشر التي هي الإسلام، وجعل وسيلة المؤمنين في ذلك الكلمة البينة القوية، والجهاد في سبيل الله بكل وجوهه، ولقد أودع رسول الله ﷺ هذه الأمانة قلوب المسلمين من بعده على مر الأزمان، وجعلها مهمة كلمتهم المكتوبة وسواعدهم المفتولة، وألسنتهم البليغة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران آية: ١١٠].

د- ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ كلمات بليغات بينات، يحددن معالم الطريق ويجلين للمؤمنين معالم الساحة، بحيث يفرزن عناصر التحدي، إذ يقلن: إن الإسلام الذي هو كلمة الله الأخيرة للبشرية مستهدف أبداً من قبل قوى الظلام، مهما كانت مقنعة بكل أنواع الادعاء الحضاري، وما لم تكن هذه الرؤية واضحة في ضمير المسلم ووجدانه فلن يجد له فسحة من نجاح في التوجه أو الحركة أو المكانة، ولن يستطيع أن يثبت حضوراً فاعلاً في مجريات الحراك الدائر، ولا متسعاً لقدميه في حومة تزاحم الأقدام، المستهدفة تغييب النور الذي حمل أمانة تبليغه. فعوامل الاغترار بالشعارات والمصطلحات المضللة كثيرة، والداعون على الأرصفة الغربية وأتباعهم على أرصفتنا إلى دحر النور الرباني كثر، وهم لا يألون جهداً في سبيل نشر ظلامهم وظلمهم، وذلك عن طريق إدارة معركتهم بالوسائل التالية:

١- محاولة تحطيم الرموز الثقافية للإسلام، والإزراء بعناصر القوة والمنعة التي تحفظ المسلمين وحضارتهم وخصوصياتهم وإضافاتهم الفذة في الشأن الإنساني والعلمي والمدني، وأهم وسيلة يستخدمونها من أجل الوصول إلى الهدف هي: تمييع مفهوم الخصوصية بالأنسنة المتماهية مع الضياع وبتقويم ثقافة

الفرز التي توضح وتفرق في وجدان المسلم العدو من الصديق، هذا فضلاً عن تعميم الانتماء للحرب الدائرة ضد الإسلام تحت غطاء محاربة الإرهاب، وذلك إما بالتخويف الذي لا مسوغ له عند المسلم المتماسك المؤمن بقول ربه ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم آية: ٦٠] أو بالتيئيس وإعدام الأمل، ذلك الذي لا يجد له سبيلاً إلى نفس المسلم الشجاع الذي يردد قول ربه﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم آية: ٤- ٥].

أو بواسطة إعلام قوم تشيعوا وحرفوا عقائدهم وسلوكهم منذ القرن الثاني الهجري، حيث برزوا اليوم كأشد الناس عداوة لرموز الأمة الذين حفظوا دينها ونقلوه للأجيال، وذلك لعمر الحق.. إنه للشذوذ والمروق الهادف لتحطيم الدين نفسه بتحطيم رموز حفظه ونقله.

٢- محاولة طمس الحقائق والمصطلحات وبث الألغام داخلها بحيث تصبح الواقعية مرادفة تماماً للاستسلام والهزيمة، ويكون الجهاد مساوياً للإرهاب والعنف والوحشية، ويصبح مصطلح القتل في المعركة مع أعداء الله مصطلحاً منبوذاً منبتاً، مع أن هذا القتل يكون في الميزان الإسلامي الفقهي مساوياً للعدل الذي بدونه تضيع الدماء ويعلو صوت الجريمة.

٣- تعميم المفهوم القائل بتفوق الغرب وحضارته، وذلك من أجل بث الهزيمة الداخلية التي تفتح جدر الأمة ومصدات مقاومتها على مصاريعها، بحيث تصبح المخازين الثقافية والعقدية مهددة من الداخل، فيدخل على الناس من الوباء ما يبعدهم عن توجيه ربنا عز وجلّ في قوله:﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

[المائدة آية: ١٥- ١٦]

هذه بعض وسائل الحرب الدائرة اليوم استعرضناها على سبيل الأمثلة وليس الحصر، وإلا فإن وسائل الأعداء المحاربين لدين الله كثيرة، ومنها القوة الغازية في فلسطين والأفغان، وفي داخل كل بلد إسلامي، حيث أوجد الذين يريدون إطفاء نور الله كثيراً من الأعوان لهم، يعيشون بين ظهرانينا، وينطقون بألسنتنا، وينتمون إلى أرومتنا، لكنهم يقومون بدور المسوق للهزيمة الداخلية، غير أن الله لهم بالمرصاد، مبيناً ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وموضحاً أن المآل في النهاية بيده، وأنه حسم الأمور بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [القصص آية: ٥- ٦].



التحدي في الأخذ بأسباب النصر



قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ [التوبة آية: ١١١].

أحزنني ذلك الجمود في عيون الشارع العربي، وهي تنظر إلى الطرائد في غزة تساقط على الثرى، فلا يجفل لتلك العيون جفن، ولا يُرى فيها احمرار غضب من أي درجة كان ذلك الاحمرار. أنين الفريسة "بابا... بابا.." لا تجد عند الجمع العربي صدىً ولا إجابة ولو همساً، رسمياً كان ذلك الهمس أو شعبياً، ويمضي القطيع يجرُّ رجلين هالكتين، ملقياً نظراتٍ بلهى على المشهد فوق ثرى الأرض المقدسة، وكأن الأمر لا يعنيها، ويستمر الحصار.. حتى من أقرب المقربين، يلزمهم به حرص على كرسي فانٍ، أو دنيا زائلة عنهم بعد لحظات، أو رأيٍ زائغ ضال، وكل هؤلاء من الأمة واهنون مفرطون. وقد ذكر ابن المقفع في أدبه الصغير خمسة من هؤلاء وعدّهم من غير المغتبطين ومنهم: "الواهن المفرط إذا فاته العمل".

لقد ضنت فضائياتنا العربية علينا حين أعطتنا مشهد الجريمة فوق رمل بحر غزة ناقصاً غير كامل، فأخذناه من فضائيات أجنبية صورت هدى ابنة العاشرة، وهي تحملق مشدوهة في جثة شقيقتها التي طار مخها من رأسها فوق الرمل (بعد أن خرجت من البحر الذي تحدى أعتى غزاة العصر)، فراحت تستنجد بأبيها لتجده جثة هامدة.. مسكونة بشظايا المتحضرين!.. وهو الذي خرج مع عائلته في نزهة على الشاطئ وفاءً بوعده الذي قطعه لهدى إذا نجحت في مدرستها.. وكان سلاح النزهة لقيمات من الخبز والطعام المتواضع، وأطناناً من أمل في أيام هادئة لأبناء مقبلين على الحياة، بعيداً عن غدر الغاصبين، الذين ظلوا على مدى ستة عقود يكذبون ويكذبون، حتى صدقوا كذبتهم بأنهم أصحاب الأرض التي سرقوها وأنهم دولة الأرض التي غصبوها، وما دروا أن

الدم المهراق الذي يسقي الرمال في غزة لن يكون إلا ناراً ونوراً، ناراً يحرق أكاذيبهم، ونوراً يضيء أفق فلسطين في يوم قادم قريب – إن شاء الله – لا يكون فيه أثر للغزاة .. وذلك عندما يتحد الدم الفلسطيني بجذور الشهداء: الشيخ المعجزة أحمد ياسين والدكتور الفذ عبد العزيز الرنتيسي، وجمال أبو سمهدانة وإخوانهم الميامين الذين تهيأوا للقاء ربهم مرددين "لقد بعنا" "لقد بعنا" "لقد بعنا" فيجيبهم رسول الله ﷺ: "لقد ربح البيع؛ فهي شهادةٌ عظيمة، ونصر مؤزر.." ألم يقل ربكم جل وعلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ . وهؤلاء هم حقاً من وصفهم الشاعر بقوله:

لي في المشارق والمغارب إخوةٌ — حملوا سلاحي وانتضوا ثاراتي

يتمرّدون على الفناء لأنهم — رسل الحياة بعالم الغابات

فتفجرّي يا أرض آبائي هدىً — وامضي كما الإعصار يا غاياتي

ليعيش أطفالي غداً متألقاً — عَطِراً كأنفاس الربى العطرات

ويجيء هذا السياق ليذكر الذاكرون مشهد النصر الذي كتبه الله على يدي صلاح الدين، وجموع الفرنج بين يديه، يخرجهم خزايا من بيت المقدس، بعد تسعين عاماً من الاغتصاب، وفي هذا ليقل القائل: لا يأس مع الصبر والعمل، ولا خذلان مع الجهاد، ولا يحبطنكم أنكم لا تلمسون نخوة المعتصم في كثير من مسؤولينا، وأنهم يسمعون صيحة (هدى) وأمثالها ومصارع الشجعان من أمثال جمال وإخوانه، ولا تلامس تلك الصيحات نخوات كنخوة المعتصم بل إنك لترى أناقات، وبخترات وخيلاء يستعرض بها مثل هؤلاء المتسيدين أوزارهم التي يقترفونها مع الناس، يدفنون بها تفاهاتهم، ويضرمون من خلالها الفتن لتبقى لهم سوح الأوطان مزارعاً، يحولونها باستغلالهم إلى جثث ترتدي وهم الحياة.. أما ترون ما كان وما يكون في سورية التي حولها الأسد إلى مزرعة خاوية؟ اما تنظرون إلى مصر وقد حوّلها مستبدوها قبل ثورتها المباركة إلى أرض تدفع أهلها نحو المجهول؟ أما ترون العراق وما جرته أيدٍ ظالمة على أهله من وبال؟ أما رأيتم سلطة فلسطين وفسادها وتحويلها ثورة الأهل هناك إلى عملية استجداء

للأرض والحق قيراطاً دون جدوى، ومع ذلك فهي لا تريد النزول عن ظهر الشعب الذي استهلكته، إذ تدفع في وجهه الفتن واحدة تلو الأخرى، ليبقى في حوزتها، تمتص دمه، وتهدر ثروته، وتسرق أمنه، وتسلمه للعدو الرافض لأي منحة ولو كانت ذليلة؟

إن الجميع يسمعون صراخ (هدى) فوق ثرى بيت المقدس، ولكن ليس من معتصم يُلتجأ إليه..؟ فها هم يتبخترون (ويا زينات ويا زينين انظروني)! وقد قال رسول الله ﷺ في أمثالهم ما قال من وصف صادق دقيق: «ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان» رواه البخاري.

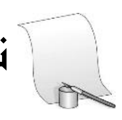
لقد أعجب بعض الناس أشكال هؤلاء، وأصواتهم العالية، وكلماتهم الخاوية، وكان الإعجاب بهم نابع من نفوس ابتليت بالمرض نفسه، وإلا لما أُعجب أحد بهم، فقد صنع هؤلاء أجيالاً لم تستفق إلا على كذبهم ودجلهم ودخولهم في خدمة أجندات الآخرين وقلبهم لحقائق الأخلاق والوطنية والإخلاص، وذلك لتكون تلك الأجيال مصفقة للخبال والوبال والويل الذي أوصلهم هؤلاء إليه.

ولقد قال رب العزة في أمثال هؤلاء وأشباههم ممن مروا في التاريخ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة آية: ٢٠٤]، ويقول جل وعلا فيهم أيضاً ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون آية: ٤١] فهم لا يستجيبون لنداء ولا يحركهم بلاء، ولا يهتز منهم ركن لمصيبة.. إنهم خشب مسندة، مرت بهم صيحات العذارى في العراق "فطنشوا"، ووصلت أسماعهم صيحات محمد الدرة وصيحات (هدى) فلم تغادر صيوان آذانهم، وقال جل من قائل ناهياً عن الإعجاب بمثل هذه الخشب ولا بأي شيء منهم﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة آية: ٥٥]... ولقد صدق فيهم هذا الحكم من الله.. فها هو الولد بعد الأب في سورية يسوس البلد بفكرة الوراثة ودفع كل فواتير استحقاق بقائها من حساب الوطن والشعب

والدولة، وهاهو الوريث في مصر يُهيأ ليكمل على البقية الباقية من رمق في مصر.. ولكن الله سلم وكانت ثورتان خلخلت الأولى في سورية كيان المغتصب للحكم المجرم الأشر، وقوضت الثانية في مصر أركان من كان كنزاً لدولة الصهاينة.

ولكن الصيحات... صيحات هدى وعذارى العراق، ودماء جمال أبو سمهدانة وأترابه الطاهرة ودماء شباب وشيب العراق لن تضيع سدى، وسوف تطوع دماء الشهداء – بإذن الله – مسار الدنى، ليخضع لغاياتها التي استشهدت من أجلها، وسوف تتحول رمال غزة ذات يوم قريب إلى لهيب يحرق الغاصبين ويحول عيشهم إلى عذاب وسراب، وسوف يظل نخيل العراق شامخاً حتى تستجيب أرض الرشيد لنداء دم الشهداء فيتملك النشامى هناك زمام الأمر. ويظل العراق معتزاً بعروبته وإسلامه الحق.. فحين تأذن الشهادة بولادة النصر فليس ذلك على الله بعزيز.. فهو سوف ينصر ثورة شعب سورية، ويلبي نداءه: يا ألله ما لنا غيرك يا ألله.

تحدي اكتشاف حكام النكبات



بين امتداد سني النكبة بدون أفقِ خلاص وبين معظم أنظمتنا رباط متين، حبل سريّ، مد النكبة بنسغ البقاء، بل والامتداد فوق مساحة التاريخ المعاصر والجغرافية، بحيث سرت مفاعيل النكبة إلى العراق ولبنان والصومال والسودان، ولا يعلم إلا الله إلى أين ستسري في ظل هذا الانغلاق، الذي سد منافذ النور على كثير من شعوبنا، وأغلق بوابات الخروج والخلاص دونها، وذلك بإتباع سياسة (ما أريكم إلا ما أرى..).

لو أن حرفاً صادقاً تدحرج من فم العائلة في سورية، لتغير لون النكبة من السواد إلى الرمادي على الأقل، لكن أحرفهم كلها كانت جامدة مخادعة مخاتلة، وكان أفقهم جمراً، أكل كل الصدق، الذي كان يصول ويجول في سورية، منذ تبنته روح الجلاء في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦، ومدته بأسباب الحياة والفرح، فلم يكن يعكر صفوه إلا صدى من نقيق ضفادع الانقلابات العابرة، إلى أن كان انقلاب الثامن من آذار عام ١٩٦٣ الذي ركبه رأس العائلة الأسدية، مجهولة الهوية السورية والعربية، وكرسه حصاناً ملغوماً، ظاهره مزدحم بشعارات الخلاص البراقة، وباطنه محشو بمختلف الخطط المرسومة لبقاء الأسد حاكماً أبدياً لسورية، وذلك برسم طريق اختطته يد أثيمة، أرادت لروح النكبة الفلسطينية ليس البقاء وحسب بل والامتداد فوق الأرض العربية، لتلتهم المزيد من الأرض والعرض والكرامة. وكانت عملية التوريث بعد أن هلك المؤسس، تكريساً جديداً للطريق المرسوم، يزيد في ظلمتها وظلمها عن الأولى بميزة الغشوم.

وهكذا قتلت روح الجلاء، بمآثر خمسة وأربعين عاماً، هيمنت فيها العائلة الأسدية على سورية فاختطفت من تضاريس وجهها كل ما كانت تخبئه في ثناياه من آفاق ارتيادٍ لمستقبل سوري، كان يحاول أهل سورية من خلاله بناءً شورياً ديمقراطياً، وإعماراً اقتصادياً واعداً، وانتماءً صادقاً للعروبة والإسلام، يفتحون بهذا كله.. ثغرات في جدار النكبة، يدخلون من خلالها إلى هدم الكيان الدخيل الذي حلّ في فلسطين، بينما العائلة عملت وتعمل على فتح بوابات للنكبة متنقلة فوق الأرض العربية؛ فهي لم تكتف باختطاف الحكم، بل هي عَدَتْ على الإنسان والقيم، وعلى الحياة والجذور، وعلى رصيد الوطن، تهب منه مالا

تملكه، فتبدده يمنة ويسرة، في سبيل بقائها، واستمرار استحواذها على كل شيء فوق الأرض وتحتها، لدرجة أن حكم العائلة غدا عبئاً ثقيلاً مقيتاً على سورية الوطن، وأهلها الصابرين المصابرين، فوجود هذه العائلة مشاركة في الحكم أو منفردة فيه، واستغراق هذا الوجود لثلاثة أرباع فترة الاستقلال حتى الآن... أدى إلى خرق المتواضعات الاجتماعية والأخلاقية وقوانين العدالة السياسية والاقتصادية للمجتمع السوري، فضلاً عن تجميده حس المبادرة العالي لدى الإنسان السوري، هذا الحس الذي كان يقفز بسورية أيام الخمسينات من القرن الماضي قفزات شاسعة الأبعاد في مجال التمدن، إذ كانت تلك القفزات تشي للزمن بان مستقبلاً واعداً ينتظر هذا البلد، ليكون مزاحماً فذاً في شتى المجالات، الديمقراطية منها والتقنية والسياسية، إلى أن كان انقلاب آذار الذي شاركت فيه العائلة الأسدية، ثم كان انقلاب شباط ١٩٦٦ الذي عزز حضور العائلة في الحكم لتصبح في الواجهة تماماً، ثم جاء انقلاب ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، الذي وضع العائلة في حالة استفراد بسورية وشعبها، استفراداً لم يكن له مثيل في اختراقه لحقوق الإنسان السوري؛ السياسية والحياتية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والمدنية، فقد توقف الزمن السوري هناك إن لم يتراجع. وتجاوزت ممارسات العائلة حقوق الشعب السوري، لتتعداه إلى حقوق الفلسطينيين بصورة خاصة، ثم حقوق اللبنانيين إلى أن خلص الحكم العائلي إلى الاحتماء بالإيرانيين، مبتعداً بسورية عن العرب، فاتحاً أبواب شر عليهم، لا يمكن له إلا أن يتقلب بناره، ويتلظى بجمره في نهاية المطاف. وهو ما تراه اليوم من دمار وخراب وإجرام، يديرها كلها ابن حافظ الوريث المجرم لصالح المشروع الصفوي، الذي هو واحد من جنوده التابعين.

وإذا كان بوش الأمريكي غير المسبوق برعونته وانحيازه الكامل إلى صف الصهاينة قد قال في كلمته أمام (الكنيست الصهيوني) بمناسبة مرور ستين عاماً على شريط النكبة الفلسطينية – العربية المتجدد: (مساداً) لن تسقط مرة أخرى وسنكون بجانبكم. ومساداً لمن لا يعرفها هي موقع فلسطيني قريب من البحر الميت، يقوم على تلة هناك حاصر فيه الرومان، أكثر من ألف يهودي، اعتصموا داخل قلعة، منذ أكثر من تسعة عشر قرناً، وأبوا الاستسلام للرومان وفضلوا الانتحار الجماعي عليه وهو "بوش" يعني بكلامه هذا تشجيع يهود العصر في فلسطين على المضي في الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وعدم التنازل عن اغتصابها، وان أمريكا تقف حارسة لهذا الظلم الفاضح، المفتئت على كل قواعد العدل، وعلى كل مقررات المجتمع الدولي، كما تقف

مكرسة شريط النكبة.

نقول: إذا كان هذا موقف بوش الأمريكي، وهذا انحيازه، ورعونة توجهه، فلماذا يحرص بشار وريث أبيه الأسد الأب على أن تكون صلاته ومحادثاته ورسائله السرية مع دولة الاغتصاب الصهيونية، والحلول التي يديرها مع هؤلاء سراً مارة من خلال الإدارة الأمريكية، واضعاً على واجهة تقدماته شعار الخيار الأوحد: (السلام خيار إستراتيجي) بتوقيع ممهور بأربعين عاماً من الصمت المشبوه على وجود يهود في الجولان السوري، دون أن يعكر صفوهم ولو بكلمة قوية.. حتى لا نقول رصاصة. في حين أنه يتزيّا بزي الممانعة الباهت، ليصدقه السذج أو الذين (يطيشون على شبر ماء دعائي إعلاني خادع). وهو بدلاً من أن يوجه المدفع السوري لتحرير الجولان يوجهه للشعب، فيدمر ويقتل ويخرب.. كما لم يفعله أي حاكم مجرم من قبل.

ومثلما يتهافت العديد من العرب، من غير أن تكون لهم حاجة لهذا التهافت، (ولكنه زمن الصغار) باتجاه دولة الصهاينة، مع بعدهم عن حدودها، وذلك لتكون لهم سبيلاً إلى قلب حكام أمريكا ورئيس إدارتها.. فإن العائلة الحاكمة في دمشق، تشكل نموذجاً بائساً في هذا السياق، ولكنه نموذج لا يدعيه أحد غير هذه العائلة؛ إذ إن تهافتها غير المسبوق وغير المقبول لدى الشعب السوري، تمهره – رغم استسلامه – بخاتم التلاعب بالألفاظ، وخبث الشعارات والمصطلحات، من مثل الصمود والتصدي والممانعة والتحدي، ومن مثل عدم التنازل عن عدة أمتار على شاطئ بحيرة طبريا، ومن مثل التمسك بوديعة رابين لدى الرئيس الأمريكي السابق (كلينتون). إلى آخر تلك الخدع اللفظية غير المجدية في وقف فضيحة هذه العائلة سياسياً وإدارياً، التي عملت وتعمل منذ وجودها على تكريس النكبة، بل وامتدادها الذي برز على أكثر من محطة على مدى الأربعة عقود ونيف الماضية. وفي هذه العجالة، قد يتاح لنا في المساحة، لنتوقف ولو بسرعة عند بعض هذه المحطات، التي عمل عليها الحاكمون في دمشق منذ وجدوا، لتكريس النكبة الفلسطينية، المتعدية إلى العربية، إن لم نقل الإسلامية أيضاً.

١- إعلان حالة الطوارئ في سورية منذ آذار ١٩٦٣ وحتى اليوم.. والقيام في ظل هذا القانون بإلغاء الحياة السياسية والحزبية، وبمصادرة الحريات، وبقمع حقوق الإنسان: وأولها حق الحياة وآخرها حق التعبير، مروراً بحق السفر والتنقل وحق العمل والتملك، وارجع إلى تقارير

حقوق الإنسان الدولية والمحلية لترى أن ما نقوله بحق الحاكم في دمشق هو أقل القليل في هذا السياق.

٢- تحطيم الاقتصاد السوري، تحطيماً أدى بالليرة السورية إلى أن تفقد كل قواها.. فبعد أن كانت أغلى من الريال السعودي والليرة اللبنانية أيام عزها، ومن أكثر العملات قوة في المنطقة، أصبحت هذه الليرة تلهث وراء كل العملات، مثقلة بالظلم والتضخم والبطالة، ونهب ثروة البلد من قبل ٥% من المحسوبين على الحاكمين، الذين أصبحوا يمتلكون ٩٠% من موجودات الوطن المنقولة وغير المنقولة، مما أدى إلى وصول نصف الشعب السوري إلى ما تحت خط الفقر بحسب أصدق الإحصائيات.

٣- تعبئة الجيش بالشحن الطائفي، والوصول به إلى حالة التعويم في سوق المحسوبيات والفساد وإبعاد الكفاءات والإبقاء على الولاءات. بحيث تحول هذا الجيش في لبنان وفي سوريا إلى مؤسسة يقودها الفاسدون الموالون غير الأكفياء من الضباط المحسوبين على طائفة معينة،إذ قال اللواء عبد الرحمن خليفاوي رئيس وزراء سوريا في فترة السبعينات من القرن الماضي: إن ثمانين بالمئة من الضباط الفئوين غير الأكفياء يسيطرون على مقدرات الجيش السوري.

وأخيراً تسخير هذا الجيش لتخريب سورية وإبادة أهلها بصورة همجية وحشية لم يسطر التاريخ مثيلاً لها وذلك منذ منتصف آذار عام ٢٠١١ وحتى اللحظة.

٤- العمل على شرذمة الصف الفلسطيني وتقسيمه بين موالٍ له أجبرته أسباب قد نصفها بالموضوعية أحياناً ولكنها في الغالب شرذمة تبتغي تحطيم هذا الصف وإضعافه، وجعله شراذم تعمل من خلال (أجندات) الآخرين. جاء في تقرير للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين نيسان ١٩٧١م: «حرب الإبادة ضد المقاومة الشرط الوحيد الذي يمكن أن يقبل به العدو لتنفيذ مشاريع الولايات المتحدة، أو مشاريع التسوية الأمريكية.. ومنذ ذلك الوقت كان الوضع قابلاً لافتراض إيجاد أداة تقوم بالتنفيذ، وتكون متسترة بالشعارات الثورية والوطنية». وهو يعني حكم أسد.

٥- شرذمة الصف اللبناني، وتحويله إلى فصائل يصطف كثير منها معه،

لأسباب شخصانية أنانية أو طائفية مقيتة مدمرة.

٦- التحريض على حروب اصطف فيها إلى جانب (أجندات) الآخر الصهيوني عام ١٩٦٧، حيث سلّم الجولان بدون حرب ليهود ثم صمت على استرداده كل الوقت، كما اصطف إلى جانب الآخر الغربي في حروب الخليج كلها، وكل ذلك لتفريغ المنطقة من كل قوة تحاول الوقوف على رجليها في سبيل استعادة الحقوق أو الحفاظ على الأوطان وقوتها في كل من فلسطين والعراق، يقول سامي الجندي في كتابه كسرة خبز: «لم أخف أبداً أن الحكم في سوريا يُعد لهزيمة لا لاسترداد فلسطين».

وأنت ترى بكل وضوح أن كل هذه المحطات التي تدعمها الوثائق والتواريخ، التي لا تتسع لإيرادها هذه المساحة الضيقة من القول، والتي يمكن الرجوع إلى مظانها في الصحف والكتب الموثقة، وقد أتينا على ذكرها في مساحات قول سابقة... تقول: إنك ترى عزيزي القارئ أن هذه المحطات كلها التي ذكرنا، والتي لم نذكرها تخدم أجندة كبيرة واحدة، هي تحطيم كل شيء في سورية وفي المنطقة من أجل تكريس شريط النكبة على يد الحاكمين في دمشق، ولتمتد مفاعيل الشريط إلى العراق ولبنان، ليثبت هؤلاء أقدامهم في حكم سوريا والهيمنة على الإقليم متعاونين مع صانعي النكبة.

ونرجو ونضرع إلى الله أن ينصر الشعب السوري بفضل جهد المخلصين من الشعب والمعارضة الراشدة، الذين يقفون على شاطئ الجراح، متحفزين للحظة المناسبة لتخليص سورية من بين براثن المافيا الحاكمة مرة واحدة وإلى الأبد، ولتكون سورية بعد ذلك بين يدي أبنائها، عاملة من أجل مستقبل زاهر موحد لأمتنا... وليس ذلك على الله ببعيد، ثم ليس هو بكبير على أحفاد المجاهدين الذين صنعوا الجلاء الواضح المنير.



تحديات شعبية سورية

وفتحت الجنة أبوابها لتستقبل الشهداء الكرام.

أكثر من ألف فتى وشاب وكهل، من خيرة الخيرة من أهل سورية النجباء كانوا أسارى عزلاً بيد الشياطين من الأنذال المدموغة جباههم بطابع آل الأسد، لا ينتمون إلى أصل ولا جذر فهم ليسوا سوريين ولا عرباً ولا مسلمين ولا حتى بشراً من البشر.. إنهم جبلة إجرامية خاصة منتزعة من عروق شيطانية قذرة.

وكان فجراً... وكان ندى الليلة يضمخ شامخات النخيل في تدمر بنداء "الله أكبر"، وامتدت الأيادي الشيطانية (مَنْ أَمَر، وتآمر، ومن سكت، ومن نفذ وأشرف وتعاون) التي ألقتها فوهات "الهيلوكبتر" الاثنتي عشرة، المشتراة من دم وعرق الشعب لتدافع عن حياض وطنه وحدود وسياج أمنه. ثم اندفعت تلك النذالة نحو الأسرى (من أشراف سورية في السجن الصحراوي الموحش). الشامخين كأعمدة تدمر التي عمرتها (الزبّاء) بفخر التاريخ وعزة العربي، وشرف التحدي، المتحدرين من هدي الإسلام وتربية محمد ﷺ، القابضين على الجمر في هذا الزمن الذي انحدر حتى وصل فيه أمثال آل الأسد وزبانيتهم إلى حكم بلد عريق سديد متين مثل سورية، وأعملت أسلحة الشيطان الأسدي قتلاً، واستقبلت الجنة صيحات "الله أكبر" من رجال كان الوطن يعدهم ليوم كريهة وموقف رجولة وشموخ.. فأبى الأنذال، إلا أن يفعلوها، فالغدر شيمتهم، والصغار مسكونة به نفوسهم، والحقد ملء قلوبهم... فهم غير منتمين لشيء إنساني أبداً..

أيها الشهداء التدمريون.. ليلة السابع والعشرين من حزيران لن تمحى من ذاكرة الزمن ولا من ذاكرة الوطن، ولا من ذاكرتنا نحن أهل سورية وحماتها... وستظل ساكنة في قلوبنا بأليم ذكراها... حتى يفتح الله بالنصر، وتزول كآبة الأفق، التي نسجتها قباحة آل الأسد ووقاحتهم وإجرامهم، وإنه ليومٌ قريب إن شاء الله. وهو اليوم يقترب من حد النهاية اليائسة لهذه العائلة الغريبة عن البلد، وذلك على يد أبطال سورية من الجيش الحر وكتائبه الشعبية

المقدامة.

أيها الأطهار الأمجاد في الجنات، باركتكم كلمات الله، وكتبكم التاريخ في سجلاته باذخاً بتضحياتكم، مفتخراً بدمكم العربي المسلم، محتفلاً بليلة اغتيالكم، كيوم إرهاصات نصر سطرتموه في أفق سورية، يوم فتح الأنذال جروحكم فسال جسد الوطن بدمائكم، وانتشى بعطر إيمانكم، وتضمخ سمعه بندى "الله أكبر" واجهتم بها أعداء الإنسان، الذين قبروا أنفسهم منذ تلك اللحظة، وسجلوا أسماءهم منذ تلك الساعة في سجل المارقين من هذه الأمة... كيف يمرق السهم من الرمية..

أيها الأحباب الشفعاء عند ربكم. دمكم الزاكي لن يضيع أبداً، وجوهكم النيرة البريئة لن تمحى من الذاكرة أبداً، أيامكم المهتدية بيننا لن ينساها أحبابكم أبداً، والأيام دول فقد أشَّرْتم لنا: أنْ هذا هو الدرب.. ومن سار على الدرب وصل لقد خط دمكم للأجيال السبيل فقال مع الشاعر المجيد:

فكل بارقة من نارهم غسق ... وكل شارقة من نورهم أفق

دم الشهيد جسورٌ فوقها عبرت ... طلائع المجد إن ضاقت بها الطرق

يخط بالدم تاريخاً ومفخرةً ... فمن دماه على تاريخنا عبق

يموت حتى يعيش المحتمون به ... ومن موات الفيافي يزهر الحبق

لولا فناء الغمام الشمم ما ازدهرت ... أرض ولا غرد في أرجائها الألق

أيها الماضون إلى ربهم بمفخرة أتعبتم من خلفكم بجودكم العظيم.. واستعلائكم الهائل على هذا الزائل، وعلى قول وفعل المجرمين المارقين، ولئن رأيتم أن المجرمين من آل الأسد ورثوا الزوال، فلا يغرنكم ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران آية: ١٩٦-١٩٧].. ثم مأواهم القبور النتنة، وكفى بهم نكداً أنهم ينامون على ذل ويصحون على ذل هذه الأيام.. فأيامهم قلق، وساعاتهم تحسب، وما بين أيديهم من جاه ومال ومكان في مهب الريح، يحسبون كل صيحة عليهم، فالصغير النذل المتربع على عرش دمشق اغتصاباً، لا ليله ليل ولا نهاره نهار.. فمن أين له أن يقر له جنان،

والشعب من أمامه، والوطن يحيط به ونتائج سياساته المجرمة وما ورثه من أثقال الإثم والردة يمسك بعنقه، ولن تنفعه كل حصونه وحماياته في لحظة الحقيقة من قدرٍ آتٍ، تنسجه له يد الوطن شعباً وأرضاً، وقدرات وضعها الله في حنايا الأحداث، كي يكون الحساب على أشده، وتحضر المجازر التي حاكها الجلاد في تدمر وحماة وحلب وجسر الشغور، وملأ بها أرجاء سورية مسطرة في كتابه الذي يخبئه وراء ظهره، إنها تحضر لتقول له أمام القضاء العادل: يا ابن هذا الصغار الذي صنعته بنذالتك، يا ابن هذا التراب النتن الذي جبلت به جثتك، يا ابن الجريمة والعار الذي حاولت ان تفسد به صورة سورية، يا ابن الهزائم في الجولان وفي لبنان وفي حفر الباطن، اليوم... تكتشف الأكف المنافقة التي صفقت لك حقيقة جرمك وخيانتك لله وللوطن وللشعب... اليوم... اليوم يكتشف أهل المؤتمرات والمهرجانات التي دبجتها للمخدوعين أو المتسلقين أو الواهمين حقيقة وجودك الذي بنيته على خدمة أجندات الأعداء.. كي يبقوك سيداً في وهمك... فهل يكون منك أيها الصغير الغريب ساعتها ندم؟ إن كان ذلك منك، فسيقول لك الشعب بملء الأرض.. (ولات ساعة مندم..) والله أكبر الله أكبر من كل متكبر جبار أخرق..



تحدي مأساة حماة



مثلما الفرح ينبثق من ثغر الفجر الذي ينفلق من قلب الليل الهارب من جيوش النهار القادم فوق صهوات الأوجاع المكظومة.

مثلما تنحني هامة الحزن بين يدي لحظة النصر المنبثقة من غَسَقِ المَهَاجر ومن بين فلول العتمة التي تتوارى خلف نهارات الصبر والمرابطة.

مثلما يأتي المطر عابقاً بعطر الأمل المتصدي لتلوي السنين التي حاولت آماداً أن تطفئ الشمس في أعماق المتعطشين لعبقة سواعد العائدين.

مثل ذلك كله تعبق صورة حماة والعاصي والنواعير، تحوطها بسمة الفجر، وتنحني بين يديها هامة الحزن، ويعبق في أرجائها عطر الأمل ويضج في الأمكنة كلها حفيف أصوات القارئين:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾

وأصوات وصور من ليالي الأمس تضج أن لا تهاون مع الحيف، أن لا وقت للدموع، أن لا فرصة لليأس، فأصوات وصور الماضي ذكرى ودروس، عمر منسي في طيات اليوم والغد اللذين يهتفان للأفئدة والأسماع الشاهدة الحاضرة:

الدرب ليس بأوله، بل بالعزم على بلوغ منتهاه، والصبر على لأواء الكر والفرّ، ومحو اللغو من الكلام والفعل، وبناء اللغة الصادقة في الموقف والصمت.

وعيون حماة تبرق للجمع بكلمات مقتضبة من على حافات شباط ١٩٨٢ مرددة مع شباط ٢٠١٣:

استفيقوا من حلم واستمعوا علماً.

الحب لا يولد إلا من غضب رسالي، وولاء الرعية حقاً لا يأتي من سرقة الفرح.

والليل الذي يعتقل النهار سوف تهزمه ساعة يقظة.

ابتدأ المشهد بالظلم، واعتلى فوق الأعناق بالظلم، وتوسط النهار بالجريمة،

فسوف يقتله الظلم وتحيط بعنقه الجريمة، فتهلكه الدهشة بعيون الحق.

أيها الوجد لا ترافقنا

أيها الحزن لا تناجينا.

أيها الليل أدبر

فقد خط النهار بريشته ناصعة العزم، أول حرف من سورة أمل المرابطين.. فوق أرض النصر القادم برعاية ربانية لشعب غرد بالمدفع، أن ولى زمن الانتظار وجاء دور الجحافل المدججة بالإيمان والأمل والعزم على فك قيد سورية، الذي حزمت عقدته عائلة الشر والخيانة زمناً هو غابر، فاليوم حرية وكرامة مقبلتين بإذن الله، ثم بسواعد رجال النور والكرامة والحرية.



التحدي في حداء الفاروق



ترّنحت الطاولة تحت قبضته الشابة القوية.. وعلا صراخه في وجه أمه:

أريد أن أرى أبي يا أماه.. كل أصحابي لهم آباء يستأنسون بصوتهم ويدرجون في أحضانهم.. ويلجؤون إليهم في مصاعب الحياة وعقبات الأيام، فلماذا أنا من دونهم أعيش يتيماً وأبي يتنفس الحياة؟!!

لماذا يزرعون كل هذه القضبان السوداء في درب اللقاء؟!

ولماذا وضعوه هناك في الظلمة والرطوبة والعفن؟!

ومن بين دموع الحرمان يأتي الجواب المؤمن الحاني:

لأنه يعشق الحياة يا ولدي.. لأنه والحرية توأمان.. لأنه غريب في ديار الظلم والحقد واستعباد الناس..

لأنه لا يجيد طأطأة الرأس ومسح أكتاف المتجبرين..

لأنه يعلق في مكتبه حداء الفاروق: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»..

لأنه صدى تلك الدعوة التي أيقظت في الكون معاني الحياة الحرة الكريمة التي سمت بالإنسان إلى أعلى الرتب.

لأنه مأمور أن يملأ الحياة عدلاً ورحمة وحرية..

لأنه مأمور أن ينزه دنياه عن الخنوع والظلم والجور وامتهان آدمية الإنسان...

لم يكن سجنه لعرض من الحياة رخيص ولا لجريمة أو خطأ أو روغان..

إن سجن أبيك يا ولدي أوسمة عز وفخار تتوهج على جبينك الشامخ.. وإن يك أترابك يرون آباءهم في ظلمات الباغين.. فخير لك أن ترى أباك في شمس الكرامة والإباء.. أو لا تراه..

تلك وصيته، يا فلذة الكبد، قبل ان تُغلق دونه قضبان الجور وأقبية الطغاة في سورية.. وها نحن اليوم موعودون بلحظة لقاء مع أنوار الحرية على يد شعب هبّ رافضاً كل أشكال الظلم والفساد والإفساد، وكل حالات تكبيل الأيدي،

وتكميم الأفواه وإسدال الظلام على وطن ظل عمره يشع الأنوار المحمدية على من حوله بأيد أموية مهتدية، فتحت للمسلمين آفاق الشرق والغرب، وجعلت من العرب أمة زاهية قائدة، فلا تيئس يا بني وها هو ساعدك جاهز لدك حصون آل الأسد والصفويين اللبنانيين والإيرانيين من آل ولاية الفقيه، الذين كانت صناعتهم منذ قرون الأمة الأولى فساداً للعقائد وإفساداً للحياة. وهاهم اليوم يتابعون المهمة بمحاولاتهم الهيمنة على هلال الأمة من العراق وحتى لبنان مروراً بسورية قاعدة عقدهم، مهددين الأمة بالويل والثبور وعظائم الأمور، كما كانوا على مرّ الزمان خنجراً مسموماً، يحاولون غرزه في خواطر الأمة.. ولكن الله لهم بالمرصاد..فكما باءوا من قبل بالخذلان، فلسوف يلقونه اليوم في سورية وذلك الهلال..



تحدي التحلي بمواصفات مهتدية



قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة آية: ١٥- ١٦].

نور وكتاب مبين وهدى وإتباع.. خط مستقيم تخط نقاطه بتلك الأربع العظيمات، موصلات المجتمعات إلى:

١- سبل السلام المجتمعي والعالمي.

٢- إخراج الناس من ظلمات الوهم والركض خلف الدنيا إلى النور المبين الذي يعطي للإنسان معنى لحياته وأمناً لوجوده وحراكه.

٣- ثم لا يكون للمستقيم اعوجاج أبداً في مسيرة الدنيا؛ لأنه الصراط الذي اختطه موجد الأكوان سبحانه وتعالى، فلن تجد فيه إلا (استقم)..(قل آمنت بالله ثم استقم) فليس فيه عدوان ولا تزييف للحقائق ولا اعتداء على كرامة الإنسان، ولا انحراف به إلى مساحة الظلام التي تجر إليها مواضعات غير المهتدين. حيث مساكنة الظلم والظالمين، وفي ذلك ما فيه من فقدان الأمن والعدل واختراق أسس التعايش والتعاون. ويظل نداء الله العزيز الحكيم بشأن مجتمع العدل والتعاون والسلام يحدونا ويقودنا ويرأف بحالنا نحو المخلوقين، وذلك حين ينادينا رب العزة بقوله جل من قائل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهنا لابد أن نوضح كيف نظم الإسلام مسيرة الدنيا ودلنا على سبل السلام لإقامة مجتمع العدل والتعاون والتعايش.

٤- وكذلك فإن رابع تلك العظيمات الموصلات أنها: تنبذ الأنانية والأثرة.. لقد قالوا قديماً وحديثاً: إن العربي فردي بطبعه! وهو قول مفتر على هذا العربي، فالإسلام جعل منه إنساناً مقداماً في نبذ أنانيته بحماسة فائقة، في

حين أن الذين أطلقوا هذا الكلام على العربي يغرقون في أنانياتهم الفردية والجماعية دون رادع من أخلاق أو قيم، فها هي مجتمعاتهم تغير على كل أرجاء الأرض ليس لهداية الناس وإنقاذهم، بل اندفاعاً خلف أثرة أو استئثار بممتلكات الأرض وحقوق الآخرين.. وأنت لا يغيب عنك في هذا المضمار تلك الحروب الظالمة التي تشتعل بها كل الممالك وأخص بالذكر ممالك العرب والمسلمين فإذا جاء من ينشد مع الشاعر قوله:

سأبدل بالكلمات الطلقات

وأغني للشمس وللحرية بعد قليل يهطل مطر، تعصف ريح

ينهض سيل يغمر وجه الأرض يمسح عن وجه الأرض عيون الظلم

وصموه بالإرهاب وعدم التعاون، وهم بذلك يقتلون العدل، ويطلون وجه السلام بلون حكاياتهم المفتراة...!! ويصبغون وجه الأرض بطلاء زائف من شعارات خادعة، ترتفع في مقدمة زحفهم المتوحش باتجاه العالم.. فلا تغرنك أحرفهم الجهنمية، التي تشكل كلمات تزعم أنها: حرية، حقوق إنسان، وديمقراطية وانفتاح، وعد إلى قول ربك النابذ للأنانية والعزلة والفردية المغرقة بالأثرة

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢] واستمع إلى نبي الهدى يقول (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض..) رواه مسلم في صحيحه واسمعه يقول: (..إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) رواه الترمذي وهو من الصحيح، وراجع عبادات ديننا المعبأة بالاجتماع ونبذ الأثرة والأنانية والانعزالية فإنك ستجد صلاة الجماعة وما فيها من ائتلاف الصف والتعارف والتعاون والانتظام والدعاء الجماعي.. وكذلك فإنك ستجد فريضة الحج التي تسمو بالإنسان إلى أقصى درجات الاجتماع والتعاون والتعارف والخدمة الجمعية، إنها العبادة الجماعية التي تقرب المسافات بين الناس، وتجمعهم على صعيد واحد يلهجون بشعار واحد، لا تعرف غنيهم من فقيرهم ولا سيدهم من عبدهم ولا صغيرهم من كبيرهم، تشاركهم نساؤهم حذو القذة بالقذة بلا أنانية ولا أثرة ولا عزلة ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩] وكانت ذروة هذا الاجتماع

والإيثـار والتعـاون والسـلام فـي المجتمـع المهتـدي بـالأربع العظيمـات، أن قـال رسول الله ﷺ عن المرأة التي تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذي جيرانها (لا خير فيها هي في النار) رواه البخاري ومسلم.

ومن الأعمدة التي تنبني فوق أساسات نبذ الأنانية وترك الأثرة، وتساهم في صنع قواعد مجتمع العدل والتعاون والسلام: التيسير والصفح الجميل والخلق القويم والرفق الأصيل، ونصوص الإسلام مسكونة بالطلب من الإنسان أن يكون متفوقاً في تلك القيم، ليتسنى له بناء مجتمع العدل والتعاون والسلام، وإلا فإنه مجتمع الأنانيات والأثرة والحروب الظالمة والقهر المقيت والركض المضني غير المجدي ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه آية: ١٢٤].

فمن التيسير ما أمر به جل وعلا ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] ... ومنه ما قاله رسول الله ﷺ (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وسددوا وقاربوا) رواه البخاري ومسلم.

ومن حسن الخلق: قوله جل وعلا: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران آية: ١٣٤].. وقوله جل من قائل:﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت آية: ٣٤].. ثم قول الحبيب المصطفى ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ومن الصفح والرفق قوله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر آية: ٨٥].. وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور آية: ٢٢].

ومنه توجيه رسول الله ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله) متفق عليه، وقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه) رواه مسلم.

وبعد.. أو ليس الدين الذي فيه كل ذلك العدل والتعاون والرفق والصفح والقيم والخلق حرياً بالناس ان يراجعوا كل ما هم عليه ليدخلوا في السلم كافة؟ ذلك السلم الذي جعله رب العالمين قانوناً لهم يفوزون باتباعه بخيري الدنيا والآخرة..؟.



تحدي تزيين التقنية بالأخلاق

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد آية: ٢٥].

يقول الشاعر أحمد مطر:

هم خربوا لي عالمي
فليحصدوا ما زرعوا
إن أثمرت فوق فمي
وفي كريات دمي
عولمة الخراب

من ينشر في الأرض الخراب..؟ من يخطو بالظلم فوق عتبات الإنسان؟ من يترك الأوطان بلا عنوان..إنهم قتلة بلافتات التحرير..! صدورهم محشوة حقداً ولؤماً وهمجية لكنهم كتبوا على جباههم شعارات الإنسان.. في الوقت الذي أطلقت أيديهم حمم القتل على الأطفال.. على النساء، على البيوت العزلاء، على الحقول المستبشرة، والأنكى من ذلك أنهم يصيحون.. نحن المتحضرون وأنتم الهمج..! نحن أهل العدل.. وأنتم الظلاميون..! نحن الذين نستحق النياشين لأننا نحمل للناس عندكم (الديمقراطية) وأنتم تحملون إلينا الإرهاب..!!

اذهبوا إلى فلسطين ...إلى العراق.. إلى أفغانستان.. وانظروا كيف تفعل حضارتنا..! ألسنا نحن الذين حررنا الإنسان هناك من الحياة؟

لا.. لا.. هم خربوا لي عالمي.. فليحصدوا ما زرعوا

(التكنولوجيا والعدل صنوان... العلم والأخلاق والروح توائم لا تنفك.. الحضارة والإنسان توأمان يجلوهما الحب والتفاهم بنور الديان.. هل ألقت إليكم

مواعظ القرآن بيانات الحضارة فأعلمتكم أن الحياة الصالحة لا تقوم إلا بمعادلة لها حدان.. إن غاب واحد منهما سقط الاثنان في الامتحان.

بهذين الحدين يشرق الزمان وتنبت على حوافه زهرات الأمن، وتحوطه أجنحة الأمان الربانية.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ وهذا هو الحد الأول من المعادلة، أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.. لماذا؟ ليقوم الناس بالقسط فهم لا تستقيم حياتهم ولا تقوم قياماً حقيقياً إلا بالعدل.. فإذا غاب العدل ماتت الحياة، واندثرت الحضارة وغابت معالم الإنسان، وإن ازدهر العلم، وتقدمت التقنية وعمت المعرفة.. وكلها تمثل الحد الثاني من الحضارة ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إذ إن هذا الحد الثاني ليس إلا حارساً وحافظاً للحدّ الأول الذي هو العدل.. فالعدل أساس والتقنية بمعادنها وسلاحها ومعارفها قائمة على حفظ العدل وقيامه بين الناس، لأنه إذا انتقض العدل والخلق.. انقلبت التقنية والعلم وسلاحهما وقوتهما ومعرفتهما إلى وبال على الإنسان، وإنك لترى بأم عينك كيف أن التقنية وسلاحها وقوتها ومعرفتها عندما فقدت العدل والخلق والإيمان والصلة بالله بين يدي الغربيين وعلى الأخص الأمريكيين منهم – تحولت إلى دمار للإنسان، وظلمة حالكة، أنتجت عولمة الخراب، ونشرت (الميديا) الفاسدة المفسدة الظالمة الهادمة لكل ما هو خير في هذه الحياة.

إنهم اليوم يشعلون الأرض في أركانها الأربع بشتى أنواع الحروب على الإنسان، فها هو جرحها ينزف ظلمة وظلماً، تنشد فجراً، تنشد نجاة من يد القرصان الأمريكي الذي أغلق الدائرة عليها، وراح نيرون يسكب فوق جثتها بترول الآخر، ويشعل عود الثقاب وينتظر متحدياً كل المخلوقات.. فمن يأخذ اليوم بالآية بحديها الحضاريين؟ إنه ليس إلا المؤمنون المقاومون يستطيعون القيام برفع راية التحدي، مدفوعين بحب الله ثم بحب الإنسان إلى ساحة الإنقاذ.. وقد بدت طلائعهم تثبت وجودها، لا يضرها من خالفها إن كان الله معها، ونظرتُ في معجزة هذه الآية الكريمة من سورة الحديد التي جمعت ببضع كلمات أسس الحضارة الإنسانية الناجعة، بعيداً عن انبهار من انبهر بزخرف

الحضارة، تمشي فوق ساق واحدة، وتنظر بعين واحدة، وقد خلفت الأساس الذي لا تقوم حضارة سديدة بدونه، وأخذت بحد القوة والتقنية، فسخرتهما داخل مصانع الظلم المتسمة بالهيمنة والغطرسة والعربدة والفساد والإفساد.

إن المسلمين اليوم يأخذون بزمام المبادرة في فلسطين، في لبنان، في العراق، في أفغانستان في كشمير.. في الشيشان.. وحتى في أوروبا وفي أمريكا.. وهم يضعون نصب أعينهم هذه الآية المعجزة من أجل تصحيح الأوضاع في بلدانهم أولاً ثم في بقية العالم ثانياً ليقوم الناس بالقسط، ويطوروا العلم ويصنعوا التقنية لخدمة الحياة وحفظ العدل كما أمر الله وأراد للإنسان بقوله ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء آية: ٥٨] تلك الإرادة النابعة من قوله جل من قائل ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص آية: ٨٣] وهم في أخذهم للمبادرة ينطلقون من المعرفة الحقة لما تريده الشعوب التي تتعطش لإرواء الأرواح التي أظمأها المكوث طويلاً في دار الظالمين، الذين حولوا الحياة إلى عبادة المادة، لذا فهم يجدون السير ويبذلون التضحيات لإنقاذ الملهوفين..

تحدي السبق الحضاري

قال تعالى في حرية الإنسان:﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس آية: ٩٩].

وقال جل شأنه في السخرية من المقلدين دون تفكير أو تعقل: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف آية: ٢٢].

ولقد بين العلامة الشهيد عبد القادر عودة في كتابه (التشريع الجنائي في الإسلام): إن الحرية للإنسان هي من أهم المبادئ والقواعد التي جاء بها الإسلام وكرم الله بها بني آدم: إذ فصلت الشريعة الإسلامية في موضوع الحرية معلنة لها بأجلى معانيها، وأوضح تجلياتها الفردية والجمعية بدءاً بحرية الاعتقاد، وانتهاء بحرية التعبير، ومروراً بحرية التفكير والرأي، وقد ركزت الشريعة بذلك على استعمال العقل في الفهم والتدبر والنظر واتخاذ المواقف تجاه كل شيء. وأمرت بنبذ التقليد الأعمى والإتباع غير المهتدي، كما دعت إلى تخليص العقل والفكر من الأوهام والتقاليد غير الصالحة، والعادات المستبدة، والخرافات التي لا يقبلها العقل ولا تستسيغها الشريعة. ونحن هنا يحق لنا أن نقول: إن من بين ما يمكن أن نعده من الأوهام التي لا يُقبل العقل عليها، ولا يقبلها الفكر المتحرر، كثيراً من الأفكار التي طرحتها فلسفة التنوير الغربية، وما يزال بعض من قومنا المبهورين بمقولات فلاسفة ما يسمى (بالتنوير) يشيدون بها، ويتغنون بمفعولاتها، ويغالون بالتمسك بها، رغم أن كثيراً منها نقضه فلاسفة غربيون جاءوا من بعد أولئك ورأوا بأم أعينهم مفعولات تلك الفلسفات الخائبة عند التطبيق والتوظيف في المجتمعات ولدى الأفراد.

فالفيلسوف الألماني (إيما نويل كانت) طرح فكرة الحرية الشخصية للفرد بلا حدود ولا ضوابط، رافضاً أية مرجعية أو سلطة مثالية أو ميتافيزيقية، تحد من حريته المطلقة عدا العقل، وقد عبر عن هذا التوجه بشكل واضح الفيلسوف الفرنسي "ديرو" حين وصف الإنسان ابن التنوير بأنه: البطل الذي يحتقر الأفكار المسبقة، والتقاليد وكل قديم، أو المتفق عليه عالمياً، أو كل ما تفتتن به

عقول الناس.

لقد وصل أولئك الفلاسفة إلى فكرة العقل الناقد واستقلالية التفكير والاعتقاد وحريتهما وهذا شيء جيد. إلا أن المغالاة التي ذهبوا إليها في هذه الفكرة أسقطت حسناتها بحرية شخصية ذهبت – في واقع الحال – إلى فوضوية تحاول اليوم فرض منتجاتها الرديئة على العالم أجمع متبناة من قبل المنظمة الدولية، التي تستعمل العصا والجزرة في سبيل تحقيق الوصول إلى تطبيق تلك المنتجات في جميع الدول، غاضة النظر عن الخصوصيات ومصطلحات ومفاهيم الناس في الحضارات الأخرى.

ونعود إلى موضوع العقل الناقد واستقلالية التفكير والاعتقاد وحريتهما مع حرية التعبير والحرية الشخصية لنقول: لقد دأب الغربيون على نسب كل فكر جيد إلى مكتشفات حضارتهم ومن إنتاج عقولهم الفذة، باعتبار أن حضارتهم هي الحضارة الإنسانية الفذة، وكل ما عداها إما صدىً لها أو أنه متخلف لا يؤبه به، وقد صدق كثيرون من أبناء الحضارات الأخرى ذلك القول المفتئت على الحقيقة، وذلك إما انبهاراً أو لقصور في أبناء الحضارات الأخرى – وأخص بالذكر هنا المسلمين – الذين قصروا في إبراز سبق الإسلام في كل ما يخص الإنسان من خير وحرية وخلاص من الأوهام وإعطاء العقل دوره في العمل والفهم والتحقيق والتدبر واتخاذ المواقف.

إن ما قاله فلاسفة التنوير الغربيون عن الحرية وإعمال العقل بعيداً عن المبالغات والزيادات التي اقتضتها ردة فعلهم على ظلم واستبداد الكنيسة الغربية بالرأي، وتحالفها في ذلك مع السلطات الاستكبارية هناك منذ قرون، أقول: إن الذي جاؤوا به في هذا السياق سبق إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ونيف، بل إنه بزّهم في هذا المجال أشواطاً وأشواطاً، مع مراعاته لرفض الجدل بين تلك الحرية وإعمال العقل، وبين الثوابت الإنسانية التي تراعي المرجعيات ذات الثبوت والفوز في مسيرة الإنسان منذ وجوده وحتى اللحظة، وهي المرجعيات التي حافظت على الكثير من التوازن وإمكانية الاستمرار الحياتي للمجتمعات الإنسانية.

ولقد عملت تلك المبادئ الإسلامية في الحرية وإعمال العقل على إيجاد حضارة إسلامية إنسانية، كانت على مدى ثمانية قرون من الزمان سيدة الحضارات، وقد تميزت تلك الحضارة بتوازنها وعملها وتقدمها بخلفية أخلاقية قيمة، لم تتسن لأية حضارة أخرى قبلها ولا بعدها؛ وذلك لأنها كانت قائمة على

أعمدة من الحكمة الربانية، التي هي أدرى بالإنسان وحاجاته وما يصلحه ويصلح له الحياة، وهي الأعمدة الصالحة للعمل والتقدم في أية لحظة، وذلك عندما تجد الإنسان القادر على الإمساك بتنويرها وبعثه في الحياة من جديد، وفيما يلي ننتقي نوعين من الحريات في الإسلام برهاناً على ما أوردناه من حقائق.

١- في حرية الاعتقاد وإعمال العقل:

كانت الآيات الحاضّة على حرية الاختيار وعمل العقل والتفكر كثيرة، ومنها:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[البقرة آية: ٢٥٦]، ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية آية: ٢١،٢٢]، ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف آية: ٢٩]، ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة آية: ١٦٤]،﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس آية: ١٠١]،﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران آية: ٧]، ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج آية: ٤٦].

٢- في حرية القول والفكر:

حيث أوجبت الشريعة على المسلم أن يكون حراً في قوله الحق والتعبير عنه، فقال ربنا جل وعلا:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران آية: ١٠٤]، وقال رسول الله – ﷺ – (الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم.

إن النظرية الإسلامية في حرية التعبير هي المأخوذ بها في العالم اليوم، وهي الحرية المقيدة بالقيم الأخلاقية وعدم العدوان على الآخرين أو إساءة استعمال الحرية، بخلاف ما أراده بعض التنويريين من إطلاق الحرية عشوائياً لتتحول المجتمعات إلى فوضى يسودها التباغض والكراهية والعدوان، بحجة الوجود وتحقيق الذات، وإن إطلاق التفكير والعقل ليعملا بلا قيود، هو ما يجعل كل مجتمع فيه من الأفكار بعدد العقول.. فهل يبقى ذلك المجتمع مجتمعاً حقا...؟!

تحدي الوحدة

قــــال تعــــالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات آية: ١٠].

هذه هي الحقائق التي لا تبلى على الرد، ولا يُروِّضها عويل قيل وقال وكثرة الهذر المناوئ للأمل الحلم، إنها كلمات للحياة للبقاء الذي لا يخدشه التخاذل، ولا يخلخله تدبيج المرافعات غير المهتدية.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ نحن عطاش، نهفوا إلى رباط إيماني، يجمع أمة لم تفلح قط إلا بالوحدة في ظل الإسلام، وإذن فمن حق المؤمنين المسلمين اليوم أن يعودوا إلى مقاعد وحدتهم، بأي شكل مناسب تكون تلك الوحدة، فالشوق إلى المجد يتوج كل المشاعر المتأججة في قلوب الأمة؛ فالمسافة بين العزة والوحدة لا تتصل إلا بالإرادة الحية والحلم المتوهج الفعال، ونحن بسعينا إلى الوحدة لسنا منغلقين – كما عبر بعض من مفكرينا – فهي وحدة مفتوحة للإنسان، متفاعلة معه، وذلك بتقديمها ما هو نافع لمسيرته فوق الأرض، وباستقبالها لإبداعات الآخر، التي تصنع التقدم وتزدهي بيانع الأفكار. إن وحدتنا هي التي تحمل في أحشائها كلمة الله الغالية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء آية: ١]. وهي وحدة لصالح البشرية، لأنها تنطلق من مبادئ رب الخلق وكلماته الفذة، التي بنت عبر قرون أمة كانت رحمة للعالمين وغيثاً عمّ الخلائق أجمعين، عدلاً وعلماً وأمناً وقيماً وسلاماً وعهوداً لا يغدر بها، كما يفعل اليوم دعاة حقوق الإنسان والديمقراطية والتقدم. وهي وحدة تحمل الخير لكل الناس؛ إذ يعلن مؤسسها ونبي الأمة ورسولها – ﷺ – «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم وآدم من تراب ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

وقد يقول قائل: إنك تنسج من الخيال واقعاً لوحدا\ة ذهب زمانها، واحتلت القطرية المعبودة مكانها.. فأقول: إن وحدة المسلمين المنشودة والأمل الحلم

الذي يراود عقول المسلمين بشأنها ليس مرهوناً بصيغة معينة تاريخية، تمثل دولة واحدة برأس واحدة وسلطة مركزية، لا بل إن الناس أوجدوا صيغاً للوحدة والتواصل بين المتوافقين من الشعوب المختلفة الأعراق والجغرافيات دون العودة إلى ما صنع في التاريخ من موافقات وتشكيلات حكمية مركزية.. وذلك بالاعتماد على حقائق الاجتماع والعقل والتدبر، تلك التي تقول: إن الدين يشكل أهم عناصر الاجتماع إلى جانب أسس أخرى داعمة مساندة، كالالتصاق الجغرافي واللغوي والحضاري، وهو ما يتوفر للمسلمين في أقطارهم المختلفة بشكل بين لا لبس فيه، وذلك بغض النظر عما يورده البعض في بلاد المسلمين، ممن يجعلون من العقل والعقل وحده إلهاً متحكماً في كل شيء، متأثرين بفلاسفة الغرب الذين نَظّروا لهذا التهافت لحظة زمنية مرت، ثم عبرت غير مأسوف عليها.

وأنت ترى بأم عينيك اليوم ما يجمع الغرب وأمريكا و أوقيانوسيا حول مائدة مسيحية تنفي وجوداً لتركيا في داخلها، لكونها بلداً مسلماً، فهم رغم تفرق جغرافيتهم ولغاتهم وأعراقهم تجدهم يجتمعون وحدة واحدة حول القضايا الكبرى في العالم، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالشأن الإسلامي (فلسطين، العراق، أفغانستان، باكستان، الصومال، السودان، وغيرها).

إن الأمل بوحدة المسلمين معقود في نواصي عودة المسلمين إلى دينهم فهماً وتدبراً وتبنياً وتنفيذاً، وهي أمور تحتاج إلى إرادة حرة وتنفيذ عاقل حكيم ومتدرج، مع مراعاة الفروق الفردية، وعدم الاكتفاء بالنماذج الجاهزة التاريخية، وإن هذا الأمل ليس خيالاً مستحيلاً، فربنا عز وجل يبشرنا في محكم كتابه بقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [القصص آية: ٥- ٦].

ولابد لهذا الأمل من تعزيز في النفوس والعقول إن أريد له النفاذ والرسوخ، ومن أهم عناصر هذا التعزيز:

١- الاعتزاز بالانتماء إلى أمة الإسلام الفاضلة المجيدة التي لها مزاياها وتاريخها وشرفها فإن الأمة التي تعلم أن كرامتها وشرفها قدسهما الله في سابق علمه وسجله في محكم كتابه: حين قال:﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران آية: ١١٠]، لهي أجدر الأمم بافتداء عزتها

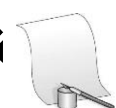
الربانية بالدنيا وما فيها. (قاله الإمام البنا في الرسائل ونقلناه بتصرف بسيط).

٢- بعث الإيمان والعمل بالإسلام، وتطبيق ما جاء فيه من مبادئ العدل والخير، ونبذ التعصب القومي الوثني المقيت، الذي ينبني على العنصرية الفاشية، التي ابتعثتها حضارة الغرب، وحاولت نشرها في العالم مع تشويه صورتها الأصلية، لتعمل بصورة أسوأ في حضارات العالم الأخرى.

٣- العمل على تركيز الجندية الكاملة في سبيل استعادة المسلمين لوحدتهم ووضعهم في خضم الحضور العالمي، أمة فاعلة ذات إضافات علمية إدارية ومعرفية، تحمل المبادئ والأخلاق بعيداً عن الاعتداء على حق الاختلاف حول التطبيق والتنفيذ، وليس حول الأصول والثوابت وعناصر الهوية والشخصية، وذلك جنباً إلى جنب مع الخدمة الوطنية القطرية الخاصة، المنزوعة العنصرية والتعصب الفاشي والانغلاق على الذات.

٤- ولما قال ربنا جل وعلا: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات آية: ١٠] فإن هذا الإصلاح – بغض النظر عن خصوصية النص – يشمل الإصلاح في كل مناحي الحياة، ورد البغي عن كل ناحية من هذه النواحي، مهما كان الباغي وأياً كان، بحيث تكون الرقابة يقظة كل الوقت، مع إتاحة وجود مؤسسات قوية مستقيمة مخلصة، تعطي الرقابة فاعليتها، التي تبعد الخطأ، وتنفي القرار من الشوائب الكثيرة التي قد تعتريه في مسيرته من الإقرار وحتى التنفيذ.

تلك هي بعض ركائز تعزيز الأمل بوحدة المسلمين، وحدة تكاملية تفاعلية نقية تقية، غير منغلقة على تركيبة تاريخية معلبة. وفيما أبدعته حضارتنا وحضارة غيرنا، مندوحة للأمة في الاختيار وانتقاء الصيغة الأصلح، ويبدو لي أنه بعد ما أوردناه من وضوح وعدم الالتباس لدى الحراك الإسلامي المعاصر في فهم الحلقات الثلاث التي أتينا على ذكرها، قد أثبتنا أن الالتباس في فهمها حاصل لمن يقول بعكس ذلك والله أعلم.

 تحدي تخرصات اقتصادية ومالية 

قـــال تعـــالى:﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [الشعراء آية: ١٥١-١٥٢].

كيف تدوسهم كلمات المسرفين: إنهم كانوا مترفين ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الواقعة آية: ٥٤٦].

والله أنبأكم: إنه (المال)، فلا يجب أن يكون مكدساً بأيدي قلة من هؤلاء:﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر آية: ٧] فإن ظلمتم أنفسكم وأطعتم تراتيلهم، فأنتم الخاسرون؛ لأن ديدن المسرفين المترفين المحتكرين للمال هو الذي وصفهم به رب العزة إذ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [الشعراء آية: ١٥٢] فهم برعونتهم وفرديتهم واتباعهم مناهج مخالفة لسنن الفطرة، تسببوا خلال بضعة شهور بخسارات هائلة، تجاوزت حسب إحصائيات الاقتصاد سبعين ترليوناً من الدولارات، فضلاً عن الكساد والبطالة وتوقف المشاريع.

وابحثوا في الذاكرة، في الفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها، هناك تجدون إسلامكم، وهو العهد الذي أخذه الله عليكم عندما سألكم سؤاله الأهم: ﴿ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ فأجبتموه: ﴿ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف آية: ١٧٢].

وكان مقتضى هذه الفطرة ألا تحيدوا عن تعاليمه التي محضكم إياها، كي تبنوا حياة آمنة سعيدة منظمة، لترتقي بكم في كل المجالات إلى المعالي والملاذات الآمنة، في الاجتماع، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، وفي المال، وفي كل العلاقات مع الكون ومع الإنسان ومع الله، فهل التزمتم بهذا المقتضى؟ والسؤال هنا موجه أولاً إلى من ابتدعوا السوق الحرة والليبرالية العولمية المتوحشة وشعار: دعه يعمل، دعه يمر بلا قيود ولا قيم ولا أخلاق. ثم يوجه السؤال ثانياً إلى الأمة التي نزل فيها وحي الله الخاتم، بأكمل وأغلى الشرائع،

لنسألها: ألم يكن الأولى لكم ألا تنصتوا لوسوسات المسرفين، حتى لا تدخلوا في خنادقهم العفنة المفترسة، التي عبأوها بفرائسهم ممن قادهم الانبهار تلو الانبهار، بجمل: حرية السوق، وشعار الحدود المفتوحة، والأزرار التي ركبت على بزة مهترئة من الأفكار، قادت العالم إلى أزمات اقتصادية ومالية متتابعة، حطمت الضعفاء، وقننت الظلم العالمي، وكرست الفقر لدى ٨٠% من سكان العالم، فلم تكن الأزمة أزمة واحدة، بل هي أزمات متتالية تمر كل بضعة أعوام، وأغلب الظن أن الأقوياء يستفيدون منها، بينما يتحطم على بواباتها الضعفاء الفقراء من أمثالنا، الذين غضوا الطرف عن تعاليم ربهم وتوجيهات نبيهم ﷺ، لاهثين خلف جمل اقتصادية ناقصة نقصاً فادحاً، لا تفيد إلا بناءً متداعياً اقتصادياً ومالياً...!! وليست الأزمة العالمية الأخيرة عنا ببعيدة، فهي تشد الرحال من نجع إلى نجع في هذا العالم، حاملة معها نذر البطالة والعطالة وانهيار المؤسسات وانهيار أسواق الخيبة، وذوبان الأوراق التي حلت مكان الإنتاج الحقيقي في التداول والمعاملات، وهو مصداق قول ربنا جل وعلا:﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود آية: ١١٦] .

فهم كما وصفهم ربنا:﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] إنه ظن وخرص لا يستوي فوق أساسات الحقيقة، بعد أن جُرب وامتحنَ وكانت النتائج وخيمة على مر العقود، ولقد كانت المعجزة جلية حين تنادى الكثيرون في الغرب في الآونة الأخيرة إلى التعاطي المناسب مع ما جاء في شرع الله من مبادئ اقتصادية مثل اللجوء إلى تنزيل الفائدة واقترابها من الصفر...! ومثل اللجوء إلى فتح خطوط مصارف إسلامية. ولكن هذا التلفيق لا يصلح شيئاً، مع أنه كان شهادة للإسلام، بل إن الذي يصلح هو الانطلاق على هدي من المبادئ الاقتصادية في الإسلام التي نعدُّ منها:

١- المال مال الله، والعبد إنما هو مؤتمن عليه﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة آية: ٢٨٤]، ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد آية: ٧].

٢- الملكية للمال ولوسائل الإنتاج ملكية فردية بوظيفة اجتماعية أخلاقية أخروية:﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [القصص آية: ٧٧] والإسلام حض على سبل الإنتاج الحقيقي، وكره الوسائل الزائفة مثل التعامل بالورق.

٣- والعمل والجد هما وسيلتا تحصيل المال وامتلاك وسائل الإنتاج: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك آية: ١٥].

٤- الظلم والغش والاحتكار وتكديس المال بأيدٍ قليلة محرمة في مبادئ الاقتصاد والمال الإسلاميين، وتحت هذا الباب تقع عدة أعمال لا يجوز في الإسلام أن تكون وسيلة لجمع المال، ومنها الربا والقمار والسرقة والتغرير وإخفاء عيب البضاعة، والكذب، والربح الفاحش، وجمع المال عن طريق ارتكاب الفواحش.

٥- حسن إدارة المال (الأمانة) فلا إسراف ولا بخل ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء آية:٢٩].

٦- العدالة في التوزيع فلا يجمع المال ويكدس في يد أو أيد قليلة﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر آية: ٧]، ومن هنا كان نظام الإرث والزكاة عاملين رئيسيين في التوزيع المالي.

٧- حيازة المال محترمة ما دام جمعه مستوفياً شروط العدل والقواعد الإسلامية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾ [النساء آية: ٢٩].

٨- والتكافل الاجتماعي قاعدة أساسية في الاقتصاد الإسلامي ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[آل عمران: ٩٢]، ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولم يكتف الإسلام في هذا الباب بالحض على التكافل والإنفاق، بل قننه بالزكاة التي طالت كل فئات المجتمع الضعيفة، من العاطلين عن العمل والفقراء والعاجزين بأي نوع من العجز والمرضى والمشردين واللقطاء والشيوخ والأسرى، ويتبع ذلك مؤسسات كثيرة تشيع الأمان الاجتماعي والتكافل المالي لا يتسع المجال هنا لذكرها.

وبعد فهذه بعض قواعد الاقتصاد المالي في الإسلام، وهناك تفرعات كثيرة لهذه المحاور يمكن الرجوع إليها في مظانها، ليعلم المنصفون أن الإسلام هو

الدين الحق الذي إذا اتبع ارتاحت البشرية وأمنت على حياتها وآخرتها، وعلى مالها واقتصادها، وكل زوايا الحياة فيها، بعيداً عن أمر المفسدين المسرفين الذين يفسدون ولا يصلحون بزيف ظنونهم ووهم تخرصاتهم.

تحدي مفاهيم عصرية

قـــــال تعـــــالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ آية: ٤٦].

لا يمكنك وأنت تقرأ نصوص هذا الدين من مصادرها الأصيلة، إلا أن تطأطئ الرأس إجلالاً واعترافاً بعظمة الإسلام وقدوته وسبقه في كل شيء خيرٍ، واستمرار تفوقه على كل الأفكار التي ابتدعها الإنسان ويبتدعها.

وإني لأقول ذلك ليس تعصباً ولا افتئاتاً على إبداعات الإنسان، بل هي الحقيقة التي تختزنها وسطية الإسلام وتوازن أفكاره ومعتقداته، كونه صادراً عمن خلق الإنسان وأبدع الأكوان، وهو العليم الخبير بما يصلح لهذا الخلق، ويجعله أبداً على جادة الصواب مهما دارت الأيام، أو تقلبت الأفكار، أو اختلفت الجغرافية، أو تنوع المكان بمن فيه.

ولسوف نتطرق في السطور القادمة عن تحدي ديننا لمفاهيم ومصطلحات عصرية، ومنها:

١- حرية التفكير:

أمر الله نبيه الحبيب المصطفى ﷺ بتبليغ الناس: أن يجعلوا من حرية التفكير والتفكر، وتدبر ما يحيط بهم، وما يدركونه بحواسهم، وما تتداوله عقولهم، فريضة مكافئة لما وهبهم الله إياه من حرية الاختيار والإرادة والعقل المميِّز، فلا يخذلهم عن بلوغ شأفة الحق طول التعامل مع الأشياء، فقال جل من قائل: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ ﴾ وبدلاً من وقوع الإنسان في خداع حواسه، وتأليه ما تقع عليه مما يحيط به من أشياء الكون، ومن ثم الخضوع لها خضوع العبيد بلا تفكر ولا تدبر، رد ربنا جل وعلا حيرة تفكير الإنسان إلى المنهج الصواب، بان يجعل من النظر في هذه الأشياء الكونية سبيلاً للوصول إلى الحق والحقيقة، وإلى برامج النجاة في هذه الحياة الدنيا.. ولا تقولن إن

الأقدمين الذين كانوا يتخبطون بجهلهم وغياب العلم المتقدم عن تجاربهم، هم الذين وقعوا في خداع الحواس والواقع المحيط، بل إن المعاصرين من الذين حضروا تقدم العلم والتمدن، ومن أرباب المذاهب المادية قد سقطوا في الحفرة نفسها، التي أدت بهم إلى تأليه الوقائع والمحسوسات، واعتمادها أصلاً وحيداً للمعرفة، وذلك من مثل كومت وماركس، حيث جعل كومت المحسوسات أصلاً، وحركة تاريخ المعرفة معتمداً في التنظير للكون والإنسان، واعتمد كارل ماركس كذلك على تاريخ الاقتصاد كأصل التنظير للغد، وكانت النتيجة أن وصل كل منهما إلى النتائج الخاطئة في جر الغرب ومن قلده من العالم إلى اعتماد الواقعية المحسوسة عند كومت أصلاً للمعرفة، والاشتراكية الجمعية أصلاً للمعرفة عند ماركس، وهما النظريتان اللتان سادتا الغرب والشرق، وأودتا بالإنسان إلى مهاوي ما نراه اليوم من تخبط في عالم الفكر المجلوب، بعيداً عن الهدي الرباني المتوازن ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك آية: ١٤].

ولقد قال الإمام محمد عبده في هذا الصدد قولة، أرى من الجدير بهذا المقال ان يتضمنها، كي يتنبه الغافلون عن سبق الإسلام في تحرير الفكر الإنساني من التقليد والإتباع غير المتعقل، قال الشيخ في كتابه رسالة التوحيد: «صاحَ الإسلام بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة، طال عليه فيها الغياب.. وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم وأعلام الكون ودلائل الحوادث، فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما قيده، وبخاصة من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته، يقضي فيها بحكمه وحكمته». وكلام الشيخ هذا يأتي متساوقاً مع قول ربنا جل في علاه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة آية: ١٧٠- ١٧١].

وإذن فحرية التفكير والتفكر والتدبر فريضة إسلامية، تقضي بالإنسان إلى اتخاذ قراره وتوجهه في الحياة الدنيا، مختاراً حراً بين النجدين، فإما أن

يتبع هدي ربه، وإما أن يتبع ما يمليه عليه هواه والأفكار التي يبتدعها، وهو في كلا الحالين مسؤول عن اختياره، وما يؤدي إليه من نتائج، وهذه الحرية كما ترى بل الفريضة سبق فيها الإسلام كل الشرائع الآدمية، وسيظل سابقاً فيها إلى آخر الزمان، بما فصل فيها من وقائع وحدود وقواعد، لن تبلغ سَمْكها أية شريعة أرضية مهما ارتفعت.

٢- حرية التعبير والاجتماع والتجمع:

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران آية: ١٠٤]، ويقول سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج آية: ٤١].. وقال رسول الله ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) رواه النسائي بإسناد صحيح... وقال ﷺ: (الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم. وقال عليه وعلى آله وأصحابه أفضل السلام وأكرم التسليم: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان) رواه مسلم.. وقال من حديث طويل: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة.. وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم).. رواه مسلم. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة.

والنصوص في حرية التعبير والاجتماع على الحرية والحق كثيرة وأختم بآية من كتاب الله تدعو إلى الاجتماع على قول الحق وجعل ذلك خلاصاً من العقوبة الدنيوية قبل الآخرة إنها قول ربنا جل وعلا﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا

كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة آية: ٧٨- ٧٩].

- وبعد فهذه مجموعة من النصوص تبين أن حرية القول والتعبير حق من الحقوق الأساسية للإنسان في الإسلام وهي فريضة فردية، كما أنها فريضة يحق الاجتماع عليها، والتنظيم لها، واستناداً إلى هذا البناء النظري جاء التطبيق فكان قول المواطن المسلم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا) فكان جواب أمير المؤمنين (الحمد لله الذي جعل في أمة عمر من يقومه إذا اعوج) وكان قول الخليفة أبي بكر رضي الله عنه: (لقد وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني).. ولكن حرية القول في الإسلام حرية مسؤولة، بقواعد تحمي تلك الحرية من الخروج على قواعد المجتمع وقواعد الإسلام، ومصادمة حرية الآخرين، حتى لا تسف فتتحول حرية الكلمة إلى تجريح الأفراد والأديان والآداب وقواعد كيان المجتمعات الصالحة.. إنها حرية مسؤولة غير مطلقة، تسعى لهدم الرموز والكيانات الفردية والجماعية المبنية على الحق والعدل.. وهي حرية تواجه الظلم والفساد، ومصادمة الإسلام.. إنها أمر بمعروف ونهي عن منكر واجتماع وتجمع من أجل ذلك، وهي فريضة فردية وتنظيمية جمعية ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة آية: ١٢٢].



التحدي لفتنة عمياء



صماء بكماء

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾ [الإسراء آية: ٧٣].

في الممرات المأزومة التي تخب فيها تواريخ الأمم، فتنطفئ الرؤى، ويتباطأ المسير ويتردد، وتأخذ الصيرورة شكل التجاعيد على وجه الماء في يوم عاصف زمهرير، ويغتر الناس ببيان زائف، ينطلق من أفواه سحرة الكلمة، وانتهازيي اللحظة وصائدي الفرص الرمادية، لتميد بهم المواقف المزجاة الرخيصة، وتستبد بآفاقهم الفتنة، وتنام في ربوعهم مفتريات اتخذت صيغ الإنقاذ، ورانت على قلوبهم ادعاءات عريضة، محاولة هز حرية الزمان في وجه الحق، الذي لا يمارى في بينته، ولا يجارى في فلق قلب الباطل، خصوصاً إذا كان هذا الحق هو المأخوذ من قول الله جل وعلا ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ وكان الباطل هو المقصود من وضوح الآية: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ وجاء الافتتان بهذا الباطل من ناحية أناس تقيحت قلوبهم وأغلقت أفئدتهم بحيرة ضيعت هويتهم، فحضروا بيننا، وقد تنكروا خلف أقنعة من مصطلحات عبأتهم بها جهات أرادت تنحية الإسلام من حياة المسلمين، إذ كان هذا الدين العقبة الكأداء في طريق أطماعهم، والنتوء العنيد أمام مسيرة إسرافهم في استهداف الأمم، نهباً لثرواتها ومحوا لوجودها الثقافي، وعدواناً على خصوصياتها متخذة من بث المفارقة بين الشرق والغرب، وتقدم الغرب وتأخر الشرق واعتماد هذه المقابلة لدس فكرة أن المسيحية دين المتقدمين، والإسلام دين المتأخرين، ولا ينفع المسلمين شيء مثل مقاربةٍ مطابقةٍ لما فعله الغرب، من عزل الكنيسة عن الحياة، وبالتالي عزل الدين بعامة وإقصائه عن أيام الناس، وقد فصل في تفنيد هذه الفرية الدكتور محمد البهي في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) وقد أدخل أصحاب هذه الفتنة في

ممراتنا المأزومة تلك المفتريات، وزخرفوها بالمصطلحات الموهمة، وبالوعود الوردية، والآمال العريضة، التي تنتظر الأمة للخروج من ممرات التأزم والتخلف، والانطلاق في فسحات سماوية من التقدم والحرية، والأخذ بأسباب العصرنة وحضارتها المتخففة من أثقال الأديان، وتواطئ النصوص على تكبيل العقول، والانحياز إلى الماضي، وذلك على حد زعمهم – ما يوقف الحراك نحو المستقبل الذي يُبنى داخل دهاليزهم وحسب هرطقاتهم.

وهكذا فإن محاولات فتنة الناس عن دينهم (الإسلام) لم تتوقف منذ أيام صاحب الرسالة المتلقي لها عن الله، حبيبنا ورسولنا محمد ﷺ وإلى يوم الناس هذا الذي نعيشه في عصرنا، حيث تطورت فيه الأفكار وآليات نقلها إلى الآخر، واستشرت وسائل هذا النقل، لدرجة أن الإنسان أصبح يعيش الفتنة لحظة بلحظة.

ولقد اتخذت تلك المحاولات الفاتنة في عصرنا نكات خادعة، من مصطلحات وشعارات ولافتات تصادف الناس أينما توجهوا.. وحيثما كانوا، وهي وإن حملت في شكلها وظاهر أمرها صورة جديدة، إلا أنها في جوهرها وحقيقة كيانها لم تبتعد عما كان يعرض على أصحاب الرسالة الأوائل من عروض، تهدف إلى جعلهم مقبولين، بل خلاناً لأصحاب العروض إن قبلوا بما يطرح عليهم ﴿ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾.

إن كتابنا الكريم المنزل على الرسول الأمين ﷺ جاء على ذكر بعض من صورة العروض أيام كانت الدعوة غضة، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة آية:١٣٥]. وقد أجابهم القرآن إجابة مفحمة ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة آية: ١٣٥- ١٣٦].

ولقد جاءت العروض الجديدة اليوم – سواء أكانت عروضاً يطرحها الغربيون أم عروضاً يطرحها كتاب ومفكرون من بني جلدتنا- منبثقة من حضن الاستشراق وأدواته ومستحقاته وتوابعه، ومن حضن أولئك الكتاب من أمتنا الذين طبعتهم التبعية بطابعها، وجرفهم الانبهار إلى مهازل فكرٍ ثبت بطلانها

عند منشئيها، وجعلوا من الفكر والعروض الغربية مناطاً لتَقْدِماتهم للأمة، إذ انطلقوا من خلال هذه السمات لجعل أي تطور أو تجديد في حياة المسلمين يدور حصراً ضمن دائرة الأفكار والنظم والمعروضات الغربية، متدثرين خلال ذلك بمنهج سموه زيفاً وبهتاناً (حرية البحث والتفكير والتعبير) في حين أن هذا الادعاء لا يخرج أبداً عن كونه حصراً لتلك الحرية المدعاة في دائرة القبول بأفكارهم والتنعم بالتقدم من خلال نبذ ديننا وإتباع مناهجهم وبرامجهم وسلوك حياتهم. ومن هنا سيطرت على ساحاتنا العربية والإسلامية مفاهيم ملغومة كثيرة، من مثل: تجديد الخطاب الديني، حوار الأديان، فتح النص القرآني والنبوي للدراسات البنبوية اللغوية، (جعلها نصوصاً بشرية)، لا قداسة لها خاضعة للقراءات خارج الاختصاص، ومن هنا أيضاً كانت تلك البرامج الفضائية التي انتهكت ثوابت النصوص، وطرحتها لبلبلة منهجية سميت (الرأي والرأي الآخر)، وكانت تلك الدعوات لنبذ السنة والاقتصار على النص القرآني، واتخذ ذلك سبيلاً إلى الاعتداء على القرآن، بعد أن يتم لهؤلاء تثبيت فكرتهم عن نبذ السنة واستبعادها، وكانت الدعوات المحمومة لتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، تلك الحملة التي تحمل كثير من أفكارها مصادمات للفطرة والتعقل والمنطق والواقع، لأنها تصدر عن خواء ومرجعيات فاشلة، وكانت أيضاً تلك الحملة على الصحابة ورواة الحديث طريقاً إلى التشكيك بما نقلوه لنا من قرآن وسنة، وليصلوا من ذلك إلى أن الحياة هي حياة الناس، وهم أولى بإدارتها وتخطيط سير سلوكها بعيداً عن أية قدسية أو نص، والتصاقاً بالواقعية المقيتة القاتلة، التي يعيشها الناس اليوم، بمن فيهم الغربيون، حيث سيطر السوق والشركات الخارقة الحارقة على أساسات الحياة، وبدأت الدول تتحول شيئاً فشيئاً إلى مافيات تجارية برغماتية مادية بحتة. لا يحكمها إلا الطمع والطموح المادي الأرعن القتال، فلا قيم ولا أخلاق ولا احترام لأية محددات من دين أو مبادئ أو أيديولوجيا، بخاصة لدى الدول الفقيرة التي يسمونها مجاملة (النامية).

إنها غابة، غابة حقيقية، أصبح فيها الإنسان لا يساوي قيمة اسمه، إذ تحول إلى رقم فلا يقال قتل فلان فلاناً أو علاناً، بل قتل عشرون أو خمسون أو مئة أو ألفاً لا غير، ويمر الرقم دون أن يثير أية مشاعر إنسانية أو تعاطفاً من أي نوع. وإنها إذن فتنة عمياء وبكماء وصماء لا إنسانية فيها.

لقد كنا في ظل بقايا الدين منذ خمسين عاماً أو يزيد ننزعج ونتعاطف مع الكلاب حين تجرد البلديات حملة لقتل الضال منها، أما اليوم وفي ظل ﴿ وَإِن

كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ أصبحنا نسمع بقتل الآلاف من البشر في أنحاء وطننا على يد الغربيين أو المتغربين من الحاكمين، فلا يتحرك فينا حس ولا شعور.. إنه رقم يمر، ليسجل غيره وهكذا. ومن تطبيقات ذلك المنهج ما يحدث في مصر المحروسة، حيث تقام مجازر قانونية إنسانية جماعية على يد مهازل يسمونها محاكم عسكرية، بحق أناس هم باعتراف القاصي والداني من أشرف أبناء مصر وأنبلهم، فلا يهتز للمجتمع المصري عامة جناح، ولا يقف المصريون – إلا من رحم ربي – لحظة، يتساءلون كيف دخل حكامهم عليهم، فجلبوا لهم باسم الليبرالية والعلمانية، وفصل الدين عن السياسة، والأخلاق عن الحكم كل ذلك الدمار والخراب الذي لن يقتصر ظلمه الأسود على الإخوان، بل هو لاحق بالجميع، وما ذلك القتل للإنسان داخل مخافر الشرطة المصرية.. إلا بداية السوء، فإن لم يؤخذ بصورة جماعية على يد الظالم، فسوف يكون في قالب الأيام شر مستطير، حمى الله أرض الكنانة وأهلها، من كل ظالم وظلم ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال آية: ٢٥].

ولا ننسى في هذا السياق: كيف أن عشرات الآلاف من الضحايا يقتلهم حكام سورية من عائلة الأسد وأتباعهم هذه الأيام، ومن بين هؤلاء الضحايا الأطفال الذين يذبحون ذبحاً أمام أهلهم؛ والنساء والحرائر يقتلن بعد اغتصابهن، والشيوخ الكبار.. يمثل بهم قبل إعدامهم، والشباب يقتلون بدم بارد وهم أسرى ويمثل بأجسادهم.. والعالم يتفرج، ولا تهزه المناظر، بل إن المسلمين يتفرجون على المناظر المستفزة.. ولا يهتز منهم عرق مروءة أو أخوة أو إنسانية.



تحدي الطامعين المهيمنين



قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت آية: ٥٣].

١) **تمهيد:**

كل يوم جديد تطلع شمسه على الناس، يأتي بالآيات الدالة على أن هذا الإنسان إن لم يهتد بهدي الله فهو إلى بوار يسير، وهذا هو مصداق قول ربنا جل وعلا﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ . فالآيات تتقافز بين أيدينا ومن خلفنا، إن الله هو الشهيد على كل ما في هذا الكون؛ الأرض والسماء، وما فيهما وما بينهما، وما تحت الثرى، وهو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، حتى إذا افتأت الناس على السنن الذي وضعه ربنا لمسيرة هذا الكون، وأخلوا بقواعد حراكه عاقبهم بما يستحقون، لعلهم يذكرون، فيعودون ويستيقظون، وهو مصداق ما جاء في بقية الآية (٥٣) من سورة فصلت إذ قال فيها ربنا عز وجل:﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يسمع ويرى ثم يجازي أو يعاقب، بحكم ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف آية: ٥٤] وذلك حتى لا يخرب بعض الأشرار من البشر قواعد الحياة الكونية، فيظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل آية: ١١٨].

٢) **أمثلة من افتئات الأشرار:**

اعتدى الطامعون المهيمنون على البيئة الكونية، وذلك انطلاقاً من إرواء غرائز التملك الجائر والغنى الفاحش، فوضعوا قواعد السوق والاستهلاك الطاغية، وأغرقوا الناس بالسلع ليحققوا أكبر قدر من الربح الباطش

بالأخلاق والقيم، ومن أجل هذا، وبناء عليه اشتغلت مصانعهم بأقصى جهد لإنتاج سلع الاستهلاك، مما يحتاجه الناس ومما لا يحتاجونه وهو الأكثر، فتعبأت أجواء الكون بلهاث مصانعهم، وغمرت الأرض ملوثات منتجاتهم الخارجة من أنفاس السيارات والطائرات وغيرها. التي استخدمت ونزلت للاستهلاك بصورة عشوائية لا تقف عند حدٍ، ولا يوقف كثافة تمددها في المدن والقرى والسهوب خُلق ولا قيم ولا ذوق، بل تحول الاستخدام والاستعمال إلى هوس سموه مدنياً! وبذلك تحول الهواء الذي نستنشقه إلى هباب محشو بالسموم والآفات، ثم انتقل ذلك (التمدن) إلى المبادئ والقيم وطريقة العيش، وبدلاً من أن يطورها إلى الأعلى هبط بها إلى الحيوانية التي تحكمها الغرائز والمطامع وأحط ما في الإنسان من قيم طينية نارية أنانية، تُقْدَّمُ لإنسان العصر على أنها الحرية أولاً، والحق الوجودي للإنسان ثانياً، والتمدن الذي تقتضيه حركة العصر السريعة ثالثاً. إن الإنسان المتحرر من الأيديولوجيا (الدين في أول الصورة)، ومن الخلفيات والقواعد الضابطة لحركة الإنسان المهتدي يصبح كحيوان الغابة إذا جاع فاستثشرت غرائز. لذلك وبناء عليه رأيت فوضى اللباس وانطلاق غرائزه لجر الناس إلى طبيعة البدائية باسم التقدم، فالعري ومخازي إبراز الجسد الطيني وإلغاء كل القوانين التي تحد من ضبط التصرف البشري المنحاز إلى حرية الفوضى وصلت بالإنسان إلى المثلية والشذوذ، وفوضى الأنساب والجندر، وإشغال الناس بشعارات مسكونة بأهم مدخلات الفساد ومخرجاته التي من أهمها حرية المرأة؛ حيث كلما أعطيت المرأة واحداً من المطالب التي تضعها على سكة الانحدار ازدادت المطامع من الرجال، أهل الغرائز والهوى وتوابعهم من الفاسدين إلى آحاد أخرى من المطالب، التي تقرب المرأة من حوزات أولئك الهابطين، والمرأة تظن – وإن بعض الظن إثم – أنها تسير إلى الأمام في تحقيق حريتها، في حين أنها لا تعلم أنها سائرة في طريق يقودها إلى حتف كرامتها وصونها، ضاربة الصفح عن أن طريق تقدمها يكمن فيما أعطاها إياه الإسلام من حقوق وأمان وواجبات، أهملها الكثير من المسلمين، ليحلوا مكانها فكراً غربياً وائداً لكرامة المرأة وقيمتها الثمينة، وأخيراً وصل ذلك (الفكر) المقعد الذي أطلقه الأشرار الطامعون بكل وسيلة صادعة بالتخلف الإنساني إلى نهاية الشوط، حيث نشروا الرعب في كل أرجاء الأرض؛ حروباً مدمرة تستولي على أرض الآخر

وممتلكاته، ثم لتعرج على موجوداته الثقافية والفكرية والحياتية، وليحلوا مكانها أفكارهم بالإكراه أو بالإغراء وبالعماية والخداع وانظروا إذا شئتم إلى ارض المسلمين المستباحة من شرقها إلى غربها، من باكستان وأندونيسيا إلى طنجة والأطلسي والصحراء وما بينهما أفغانستان وكشمير والشيشان والعراق وفلسطين والصومال والسودان ودول المغرب ومصر والخليج، إلخ إنها مستباحة فالبعض منها باحتلال كامل، والبعض منها باستباحة ثقافية وفكرية وطريقة حياة، وهنا جاء عقاب الله وردعه وتدبيره من أجل إنقاذ الجميع؛ الكون والإنسان والحياة الصالحة..ألا ترون عقوبات الله المتمثلة بهياج جند الله من عناصر الطبيعة (الزلازل والأعاصير والفيضان والأمراض التي لم تكن في الأسلاف) أهي تأتي صدفة، كما يريد البعض أن يقول: أم أنها مجرد حركة طبيعية ليس فيها جديد كما يقروون؟

إن ذلك الهياج فضلاً عن ارتفاع حرارة الأرض والتهديد الحاصل بذوبان طبقات الجليد في المحيط المتجمد، المهددة بغرق العالم، ليست إلا مظهراً من مظاهر العقاب الرباني، وهو إنذار يريد الله منه صحوة لهذا الإنسان وعودة منه عما تقترفه يداه، وها هو الزلزال المالي الماحق الذي بدأ بأكبر رأس قاد طَمَّ الفساد والإفساد، ثم ها هو يجتاح واحداً بعد الآخر، بسبب سكوته واتباعه الرأس الفاسد:﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة آية: ٢٧٦]،

﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة آية: ٢٧٩] وكل ذلك هو عقاب تنبيهي له ما بعده؛ لأن الأشرار تجاوزوا حدودهم، إذ هددوا الحياة الكونية برمتها، فالله ينبه أولاً من يحاول الاعتداء على مخلوقاته، فهل أنتم مهتدون؟

٣) **شهادات نزيهة على صلاح الإسلام:**

ونكتفي هنا بشهادتين اثنتين ونترك لجهد القارئ أن يطلع على الكثير منها:

أ- شهادة عامة:

يقول س بالتشي في مقدمة الترجمة العربية لكتاب عزت بيغوفيتش "الإسلام بين الشرق والغرب" (إن الإسلام يمنح معتنقيه أساليب ناجحة لمواجهة الحياة في مجتمع علماني، نذكر على سبيل المثال خلوه من الأسرار المقدسة، ومن النظام الكهنوتي والعماد. كما نذكر الطبيعة المدنية للزواج في الإسلام، والمدخل الفطري للعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، ورفض فكرة الحرمان الكنسي، والموقف الإيجابي من المعرفة والبحث العلمي، والاستعداد الوثيق للتحاور مع عقائد التوحيد، إن التقدم الأعمى الذي لا يقوم على أساس من إطار قيمي يؤدي إلى المخاطرة بتعريض الشخصية للاجتثاث والضياع.

ب- **وشهادة بخصوص الأزمة المالية الحالية، بوفيس فانسون رئيس تحرير مجلة تشالينجر:**

(أظن أننا بحاجة إلى أكثر في هذه الأزمة لقراءة القرآن بدلاً من الإنجيل، لفهم ما يحدث لنا ولمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من أحكام وتعاليم وطبقوها، ما حل بنا ما حل؛ لأن النقود لا تلد النقود.

ويقول رولان لاسكين رئيس تحرير صحيفة لوجورنال دو فينانس في افتتاحية مجلته: (يجب تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الأزمة التي تهز أسواق العالم)، كان هذا المقال تحت عنوان: هل تأهلت وول ستريت لاعتناق الإسلام؟ ونحن نقول بدورنا هل تأهل ناس من بني جلدتنا ليفهموا ويتدبروا الثروة الثقافية والفكرية والتشريعية، التي بين أيديهم والمتمثلة بدين الإسلام، الذي يتهربون من تطبيقه، بينما ينادي الآخرون بإتباعه لإنقاذ أنفسهم؟ يا لها من مفارقة...!!



تحدي مشاريع الإغراء



قال تعالى:﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم آية: ٤٦].

ويمر عام.. وعام بعد عام، تعاود الذكرى أحلام السائرين فوق الطرق اللاحبة يبتغون الوصول، والميناء ما زال يلوّح للقادمين بدم الشهيد: أن هذا هو الحنين.. وأن الثبات والإصرار على حمل الحلم، الذي صنع أوصاله مجدد العصر للمعاصرين مستمران، إنه الإمام الشهيد مؤسس البناء على أعتاب القرون، هل عرفته؟

لقد نطق قلبك باسمه قبل أن تتدحرج حروفه على شفتيك لتقول: حسن البنا.. ومن غيره يكون ! إنه علم العصر، الذي يرفرف خفاقاً بروحه ودعوته في الميادين الممتدة من آسيا.. إلى أمريكا.. إلى إفريقيا .. إلى آخر الحجر والمدر.. فأنت أينما نظرت، نظرت بعينك اللماحة روحه الفواحة وشممت عطر قوله (نحن روح تسري في الأمة) وهي روح حاول جلادو العصر مدعو التحضر زوراً وبهتاناً أن يكبتوا فوحها الشذي في المهد .. وغرهم في خزي ممارستهم أنهم لا يتقنون مواجهة النور بالحوار، بل هم:﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف آية: ٨]، وما علموا أن الله لهم بالمرصاد ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف آية: ٨]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف آية: ٩] وكان أن انتقلت راية النور بعد الرسول إلى بعث يبعثه الله على رأس كل مئة عام ليجدد لهذه الأمة أمر دينها، وذلك حين ظن الضالون المتكالبون على الأمة ومن يعاونهم من داخلها، أن الأمر قد استتب لهم، وأن القيادة قد سلسلت بأيديهم، وأن النور قد ولى إلى غير رجعة، وكان هذا ظنهم الذي ظنوه بعد سقوط السلطنة العثمانية، وتسليمهم الراية لعميل لهم (أتاتورك)، ليكمل مهمة هدم ما تبقى من كيان النور، وليثبت طريقته وصيغته الصليبية – الصهيونية في قلوب بعض

الانقلابيين في وطننا العربي، بدءاً بسورية وامتداداً إلى مصر والعراق وغيرهم، حيث كان (أتاتورك) المثل الذي تشبعت به وامتلأت بمبادئه قلوب زعماء الانقلابات في بلدان المسلمين، التي جاءت بعد سقوط الخلاقة العثمانية....

ولم يعلم أن الله لهم بالمرصاد، وأن مكرهم مردود عليهم:

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم آية: ٤٦] فالله لهم بالمرصاد، فلئن كان طغيان هؤلاء ودعم الأعداء لهم واتخاذ الصنم الأصم (أتاتورك) مثالاً ورمزاً، فإن مكر الله أكبر، وعذابه أشد، فقد هلك هؤلاء غير مأسوف عليهم، بل إن الأجيال لعنتهم، وقالت كلمتها فيهم، فقد بان لها ما طَلَوْا به وجوههم من مسوح وطنية ومن ألوان شعاراتية خادعة، جرّوا الأمة من خلالها ومن خلال توظيفها المأزوم إلى مسافات من التبعية، وإلى مزيد من السياسة الرعناء، وإلى نهايات حزينة، تبدو سوءاتها اليوم فيما تظهره المشاهد المتنوعة على ساحاتنا من عجز وذل وفقر وتخلف، تقوده كثير من الشلل الحاكمة في تلك البلاد التي ذكرنا، وهي سائرة على خطى أوائلهم، من الذين سلموا مصير البلاد والعباد إلى المآلات التي نراها اليوم... ولولا أن الله سلم فأراد لهذه الأمة الخير، وذلك ببعثهم فيهم الإمام الشهيد ودعوته، والرجال الذين ساروا على دربه من الربانيين على أعتاب الانقلاب الأتاتوركي البغيض، وقد كان بعثاً بصرخة إنقاذ، أطلقها الشاب الأريب العظيم حسن البنا، من شواطئ وادي النيل في مصر، لتمتد موجاتها بلا تردد إلى كل الأنحاء من بلاد الإسلام، ولئن كانت الضربة المعادية لشعوبنا وديننا جاءت على يد من استلم مكان سدة السلطنة في تركيا العثمانية، فإن الصرخة الإنقاذية جاءت من أرض الكنانة المحفوظة بحفظ الله ورعايته، فكانت سهماً نورانياً غرس أضواءه في بلاد المسلمين، فسرت الصرخة دعوة مغدقة، هي التي تقف اليوم في وجه المحتلين في العديد من البلاد، وهي التي وقفت شوكة في حلق الطغاة في الكثير من أمصار الإسلام، فلم يعد الناس ينتظرون مصيرهم كالنعاج، على أيدي المجرمين من وكلاء الأسياد في الغرب، الذين عبأوا الأرض بالقتل والسجن، والتعذيب والكبت والتخلف والفقر، ليحظوا هم وهم وحدهم بكل شيء، ولتذهب الشعوب ومصيرها وسيادتها إلى البوار.

أقول: إن الناس لم تعد تحكمهم حالة الانتظار بعد أن أشرقت كلمة الحق

على لسان ذلك الشيخ القرآني الجليل، منطلقة من بيت متواضع في الإسماعيلية عام ١٩٢٨م، حيث تتراءى له معسكرات الاحتلال الإنكليزي ممتدة على شواطئ القنال، مختالة فوق هامات الأمة، بعد ان خلا لها الجو برحيل قوات السلطنة العثمانية. بل إن كلمات ذلك الشيخ الشهيد الإمام مجدد العصر، صاحب البناء العظيم حسن البنا، أيقظت في الناس غفوتهم وغفلتهم، ونبهت قواهم ووعيهم إلى ما حلّ بهم، وما هم فيه من ضياع وبوار، فبدأ الصحو يأخذ مكانه في العقول والقلوب على هدي من سيرة ربانية هي قبس من نور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف آية: ١٠- ١١].

ورسخت اليد التي قادت الركب الرسالي بالعقل المهتدي بنور الرسالة وكتابها العظيم، لتعلو الشجرة وتمتد، وتأخذ مكانها السامق اليوم في الشارع العربي والإسلامي حيث لم يعد أحد يستطيع تجاوزها، بعد أن اهتدت الجماهير بالهدي النبوي الذي أطلقته الدعوة من عقال أسر الظالمين.. والدوحة تفرش فيأها وظلالها الوارفة أبعد وأبعد.. إلى أن تتحقق النبوءة الرسالية، وتصل الكلمات إلى كل الحضر والمدر.. وإلى كل ما طلعت عليه الشمس، وهنالك يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

إنها دعوة مباركة تقوم اليوم في سورية وفي مصر بتحدي أصنامٍ كثيرة في بلاد المسلمين نجمت ونمت على يد مشاريع قمع المسلمين في مصر من جديد، وقتل المسلمين في سورية بوجشية المشروع الصفوي الكسروي، الذي صنع له صنيعة عائلية أسدية، تخدم في أذيال الطائفية المقيتة.

وإنها لتحدٍ عظيم لمشاريع تود أن تبقي الأمة خاضعة لمصير لا تملك من أدواته شيئاً، وتجعلها غير قادرة على التغيير.. فلتجتمع قوى الأمة اليوم لاستعادة زمام المبادرة ولامتلاك حقوقها ومصيرها وقدراتها وإرادتها الحرة، فهذه الإرهاصات بدأت ربيعاً راحت براعمه تتفتح وتزهر إن شاء الله.

 تحدي أداء أمانة العدل 

قـــال تعـــالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء آية: ٥٨].

جاء الإسلام ديناً حنيفاً من عند الله، يحتوي على نفائس عظيمة من الخير العميم لصالح الإنسان ومسيرة يقطعها حياً على وجه الأرض، ومغادرة لهذه الحياة آمناً على مصيره الذي يصير إليه بعد الحياة القصيرة المكتوبة له.

وبقدر ما يقترب هذا المخلوق العجيب من الالتزام بذلك الخير العميم والفكر السديد والسلوك اللامع، بقدر ما يحصد من استقامة وسداد في نظام الحياة، وفلاح وفوز في المصير الأخروي، ذلك الغائب الذي يقلق كل نفس مهما بلغ عتوها، وبهذه الصورة الفذة تكتمل في ذهن المسلم قضية العدل الربانية.. التي بنى عليها الإسلام كل مقوماته، بحيث تجتمع الدنيا والآخرة متآزرتين في حس المؤمن لتحقيق العدالة، من خلال إمداد رباني غير منقطع أبداً. وإن من أبرز الوسائل التي يربي القرآن الكريم أتباعه بها، ليظهر في نفوسهم وشعورهم وسلوكهم آثار هذا الامتداد والاجتماع بين الدنيا والآخرة، هو هذا الركون إلى قاعدة القيام بالواجب المطلوب من المؤمن – فرداً عادياً أو مسؤولاً – وذلك قبل النظر إلى الحقوق والمطالبة بها، إذ المؤمن يتخذ من أداء الواجبات وإعطائها حقها العظيم بوابة ومدخلاً إلى التزام الآخرين بحقوقه قبل أن يومئ إليها، فضلاً عن طلبها... ولقد جاءت مقدمة الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ مطالبة جميع المؤمنين – والحكام من ضمنهم – بتأدية الأمانات، وهي الواجبات المطلوبة منهم تجاه كل من له حق عليهم، وذلك قبل أن يطالبوا بحقوقهم، وقد خص رب العزة بالطلب نوعاً من الواجب وهو الحكم بالعدل بين الناس إذ قال جل من قائل:

﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء آية: ٥٨] وجاء ذلك التخصيص نظراً لخطورة هذا النوع من الواجبات،

بالإضافة إلى خطورة ما يترتب على التفريط بها من ضياع يصيب نظام الحياة السديد ومن ظلم وظلام وفوضى، تعبث بمصائر الناس وحياتهم وطرائق التعامل فيما بينهم، وتلك جميعاً قضايا نذر الدعاة أنفسهم في كل عصر ومصر لحمل العبء فيها، من أجل أن يأتي التنفيذ لها مطابقاً لقوله تعالى:﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ حتى إذا تحقق ذلك، جاء الجواب في الآية الكريمة التالية من سورة النساء، لتربت الحق لاحقاً لتأدية الواجب المتعين بتأدية الأمانة وتحقيق العدل﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء آية: ٥٩].

وحسب المسلم المؤمن أنه يحمل هذا العبء، وأنه يطالب بالعدل في الدنيا للناس جميعاً، فإذا تحقق فيها ذلك العدل فهو المطلوب والمرغوب، وإلا فإن العدل في حسه ممتد إلى الآخرة غير منقطع، والخاسر الأكبر على مدى هذا الامتداد هو من أعطاه الله ملكاً وسلطاناً ثم حاد بهما عن الاستقامة والعدل، ولم يعمل إلا من أجل ترسيخ سلطانه وتوسيع دائرة ظلمه وتحقيق الشهوات له ولأتباعه وأهله، ناسياً بعد لحظة من توليته إنسانيته، وأنه ضعيف ضعيف مهما بدا له من قوة، تهرق عناصرها بين يديه، متنكباً آيات الله العظيمة القائلة ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء آية: ٢١٥]. والتي تقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل آية:٩٠] ومعرضاً عن توجيه رسول الله ﷺ إذ يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته..) متفق عليه.

وعن هديه القائل: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) متفق عليه. فهل يرعوي من يذهب ومن يأتي من ولاة الأمور فيستقيمون على أمر العدل؟ أم أن وهج السلطة وإغراءاتها يجعلهم يصمون الآذان عن أنين المأسورين ظلماً، ويعرضون بوجوههم عن سماع كلمة الحق والعدل، التي تطالبهم ليل نهار بمغادرة وشوشات الغايات والرغائب الدنيا التي تحقق لهم الرفاه المغموس بدم الشعوب؟

إن العاقل من اتعظ بغيره، ففهم مغزى الموت، على أنه ليس انقطاعاً بل هو امتداد لفرص العدل، كي يكتمل، فيحصل المظلوم عليه كاملاً ناصعاً، ينادي في الناس من بين ثنايا كلمات الله البليغة ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .



تحدي ما يطرح بديلاً عن الإسلام



قال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء آية: ٨٢].

لنفتح دفتر أيامنا المعاصرة، ولنقرأ في سطوره: هاهو الإنسان يتلوى كغصون ذابلة، انفصلت عن أصلها، عن جذرها الرباني، لتعبد التكنولوجيا واللذة وخبال الرفاه المأزوم بفقدان الروح، المتسربل بحمى الانتحار، والمحاط من كل اتجاه باليأس والشر وخذلان الكرامة الإنسانية، والمنتفخ بقيم القوة الطاغية الخاوية من أية رحمة، ومن أي اتصال إنساني ذي رحم، فالحرية التي يقال عنها ليست هي الحرية التي يعرفها الإنسان الذي كرمه الله، والشر الذي تدعي محاربته ليس هو الشر الذي يعرفه الإنسان السوي، بل هو ضعف الآخر المغري باستلابه.. والإرهاب الذي تحاربه ليس هو الإرهاب الذي تعرفه قواميس العالم، إنه الذي يحاول أن يقول كلمة احتجاج أو تأوه من ظلم تلك القوة الباطشة الغشومة..! أرأيتم إلى سطور ذلك الدفتر؟ إن كل الحروف فيه ضائعة، كل الجمل مختلفة المعنى والمبنى، الحضارة فيه توحش وبطش، والعلم فيه خدمة للموت... للقتل.. لإفناء الآخر.. وتأتي الخدمات الآنية فيه لذرِّ الرماد في العيون.

ألم أقل لكم: إن البعد عن قيم القرآن مذلة للإنسان ومصيدة له توقعه في حبائل التيه، إذ يقول رب العزة:﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج آية: ٣١] فلا نجاة له ولا أمان، بعد أن أصبح الأمان ذكرى هاجرت من أصدائها الأفراح، وراحت تقاطيع الوجوه لا ترى إلا واجمة خامدة فيها نضارة الحياة.

فهل تعلم أين يكمن اتجاه النجاة؟.. وهل تذكر كيف تتجمع الحروف المضيئة لتؤلف سفر أزمنة الضياء؟

لابد أنك تلوت الآية بعد أن أضاءت في عينيك جملة من أزاهير عشق

الحق.. إنها آية الإسراء التي تقودك بمخزونها العظيم لتضعك فوق سكة النجاة: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء آية: ٨٢]. ألم أقل لك: إنها الدليل الهادي..إنها الرائد الذي لا يكذب المؤمنين..إنها فرقة الإنقاذ المقتدرة في هذا الصخب العولمي المتغطرس، الذي أظلمت فيه الطرقات وضلت فيه السبل، ونجم فيه نبت الصراع الشيطاني الذي نقض الأبنية المهتدية، ونكث العهود الأولى، القائلة:﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ والمبينة شمول هذا الهدي بالآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر آية: ٢٧] الموضحة غاية التوجيه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء آية: ٩]،﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر آية: ٢- ٣].

إن هذا الصخب العولمي يريد أن يمحو معالم النجاة من أفق الناس، فهو يطرح على الناس بديلاً عن الآيات المنجية والقيم الربانية السامقة التي تحملها، وعن السلوك الإنساني المهتدي بهديها، أقول: يطرح على الناس نفسه داءً بصورة دواء، متخفياً وراء مصطلحات العلم والتكنولوجيا ومحاربة الإرهاب. وأمن العالم، ولكنه في هذا المجال يغرق الناس بمفاهيم غواية ضالة مضلة تسير بالناس نحو التيه، بحيث لا يدرون ما هو الحق وما هو الباطل.. ومن أهم وأعتى وأظلم تلك المصطلحات، ذلك المفهوم الذي يقود به ذلك الصخب العولمي مسيرة التيه وهو يقول: إنه لا أحد يحتكر الحقيقة ولا أحد يملك الحق... إن هذه المصطلحات هي الباطل بعينه، الذي تضيع معه الحقيقة، وتضل البوصلات، ويختلط فيه الأمر على الناس بحيث يصبح – حتى الإسلامي – يردد ويكرر: أن لا أحد يمتلك الحق أو يحتكر الحقيقة، وهو مدىً عميق من التيه الذي أرادوا أن يوصلوا إليه المؤمنين من خلال هذا الصخب العولمي الذي أشاعوا مصطلحاته ومفهوماته ليصبح الجميع يكررها بدون الانتباه إلى مؤدياتها ومراميها وخبث نتائجها.

ولكن... هيهات هيهات أن يُطمس هذا الزخم القرآني في الحق، وقد تعهد منزله رب العالمين جل شأنه بحفظه ونصره إذ قال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر آية: ٩] وأن الإنسان العصري اليوم أشد المخلوقات حاجة إلى ما فيه من مواعظ النجاة، ووسائل الإنقاذ من براثن الضلال المتمنطق بأحزمة القوة والجبروت والهيمنة، المسلط على رؤوس الناس جميعاً أطناناً من أسلحة الفناء للبشرية، وهو يدعي التوجه إلى الأمن والآمان.

إنه الكتاب الذي فيه الدعوة إلى القسط والعدل﴿ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات آية: ٩]، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد آية: ٢٥] وهو الكتاب الذي يدعو إلى العلم والمعرفة وعمارة الأرض ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة آية: ٣١]، ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود آية: ٦١]،﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة آية: ٣٠] وهو الكتاب الذي يدعو إلى البر والإحسان في كل شيء وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الرحمة بين الناس وإخلاص النية وإلى الحرية والمسؤولية القاصدة والشورى.. وإلى كل ما فيه سعادة هذا الإنسان وبعده عن الضلال والدمار.. ويشكل السعي إلى تحقيقه قضية المؤمنين في هذا العصر، ولقد بين رب العزة هذه المبادئ في القرآن إذ قال:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ... وقال جل من قائل:﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص آية: ٨٣] وقد قال معلماً وموجهاً:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل آية: ٩٠].. وقال رسولنا الكريم ﷺ: (الراحمون يرحمهم الله) .. وقال جل من قائل:﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾...﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾... وقال الرسول الحبيب ﷺ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)... وقال ربنا جل وعلا في الإخلاص وفي التقوى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.. و:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج آية: ٣٧].

حقاً إنه شفاء ورحمة للمؤمنين.. ولكنه لا يزيد الظالمين العتاة المعرضين عن الذكر وعن الحق من مثل قوى الطغيان والهيمنة في هذه الأيام إلا خساراً وباراً وانكساراً بإذن الله. وإن الحقيقة والحق يمتلكها من كرس قلبه وعقله مع كتاب الله ليكون له وللمدعوين المستجيبين شفاءً ومنهجاً قويماً يمتلك حقيقة الحياة وأجوبة أسئلتها الصعبة.

تحدي الطواغيت

قـــال تعـــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر آية: ١٧].

هل أبصرت درب البشارات..؟ والكلمات الرفيفة في الآية العظيمة تختال في حلل النجاة تعرض السبيل القويم، يقود ناصية المستجيبين إلى حيث مشكاة النور، وهم يحلمون بالاستقامة والأوبة الناجعة، ليقيموا في ديار البشارات التي تغفو على رفيف الحنين إلى حياة ملؤها الحب، عابقة بروائح الكوثر، مدججة بهمسات البدر في ليلة رمضانية، تجلت فيها كل أفانين الصلاح، حتى اغرورقت العيون بالدموع، وأبحرت الأرواح في رحلة خطتها يد الرحمان، وحاطتها بالرعاية آياته الحسان.

هل أتاك نبض الحروف داخل الكلمات التي تقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزُّمَر: ١٧]

هل أتاك ذلك النبض..؟ فأَنْصَتَّ من خلاله إلى نداء الروح الظمأى، تتوق إلى اللقاء الأبدي بدفق العرفان، وتطمح أبداً إلى شلال نور الإيمان يضيء ليل المدن اليباب وضجيجها المجنون، فيخرجها من لهب الخوف وجنون الضياع، المتلفع بعتمة الطاغوت الكامن للإنسان العصري في كل زاوية من زوايا حياته الرهقة.

- أرأيت ذلك الطاغوت يكمن في زاوية الهوى، يحاول أن يجعل من رغائبك ومزاجك وشهواتك وطموحاتك مشاريع غير شرعية، تقودك، وتوجهك أيها الإنسان في دهاليز حياة توجيهها يبتعد بك عن السداد والرشاد الذي أراده الله لك، لتستقيم لك الحياة سائغة، كشراب حلال رائق، يمدك بأسباب الصحو وأيادي الحق والحقيقة، اللذين يعطيانك من كلام الله على كل سؤال محير جواباً مطمئناً، يجعلك أبداً في كبد الطمأنينة والراحة والمعرفة السديدة، فلا يلج بك اصطخاب الفانية ومادتها الذي سرق الراحة والهناء من مسام الحياة العصرية، وعبأها بكل تنافس غير

شريف، يديره طاغوت الهوى والرغائب غير المشروعة، بحيث تحول الهوى إلى إله يعبد من دون الله: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان آية: ٤٣]. فتصور هذا الإنسان المتبع لهوى نفسه ورغائب غرائزه حاكم الأرض، بل يدعي أنه رسول العناية الإلهية لإنقاذ الناس، وذلك من خلال حماقات وترهات يزينها له شيطان الهوى، ويوسوس له بها أتباع أو أصدقاء سيطر عليهم بدورهم طاغوت الهوى، فسقطوا في حمأة العبادة الشيطانية التي لا يتبرأ منها إلا من أناب إلى الله واستسلم لمنهجه وكلمات آياته: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات آية: ٤٠- ٤١] ثم عَلِمَ حق العلم أن الحق كل الحق في مخالفة هوى المضلين كما قال رب العزة ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]. ثم هل لاحظت طاغوت السلطان كيف يلج بالإنسان دروب الخطأ والخطيئة، عندما يبتعد هذا السلطان بصاحبه عن الالتزام بما شرعه الله، وتحول إلى عبادة تمتلك على صاحبها كل مناحي حياته، فلا يقيم لأي قيمة أو خلق أو إحساس عام وزناً ولا مكاناً في توجهاته، ويذهب في هذا المجال كل مذهب مهما كان مخالفاً لجادة الصواب، متخذاً من شهوته للبقاء في سدة الحكم والسلطان طاغوتاً يوجهه، ويرسم له كل سلوك، ويزين له كل ممارسة مهما كانت شاذة، مخالفاً بذلك توجيه رب العزة الذي أمر به نبيه داود عليه السلام إذ قال له:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص آية: ٢٦] والهوى هنا هو شهوة الحكم والتسلط، وحب الهيمنة والغطرسة، وهي جميعاً مفاسد لابد للمؤمن في أي موقع كان أن يتجنبها، ويلتجئ إلى توجيه ربه كي يحظى بالبشرى التي أعدها الله له في آية [الزمر رقم: ١٧] التي صدرت بها هذه الكلمات والبشرى هنا والبشارة تعنيان: أولاً: الحياة الرغيدة السعيدة في ظل الامتثال لمنهج الله، وثانياً: الحياة الناجية الرغيدة في الآخرة.. وإذن فهما النجاتان والفرحتان والسعادتان،

وجميعهما مكتملتا التأثير في حس المؤمن وسلوكه، بحيث يبعدانه عن الطاغوت والطغيان اللذين لا يسقط في حمأتهما إلا كل محروم، خصوصاً من حكام الأرض الذين أصبحوا من المطففين، من أمثال حكام أمريكا وأمثالهم وأتباعهم وممالئيهم، حيث وصف حالهم ربنا جل وعلا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين آية: ١- ٣] معتمدين في هذا الطغيان والظلم على قوة – هي زائلة – وضعها الله في أيديهم يمتحنهم بها، وليكون سقوطهم من كسب أيديهم ومن وحي هواهم وممارساتهم الطاغية بحق الإنسان في كل مكان، حيث حولوا الأرض إلى منافي ومعتقلات وقبور جماعية ومظالم معتمة لا تنتهي إلا كما قال الشاعر:

بتُ أخاف من صمت السهول

أخاف من نوم الجبال

ومن سكون البحر

دثرني بوهج أساك

- ترى أين تكمن النجاة؟ وكيف نصنع الظلال الوارفة، التي تظل الحياة الإنسانية بنسماتها العليلة وتنقذ العباد، وتبشرهم بالنجاة في الحياتين، وترسم لهم درب الخلاص من الأفاقين الذين أوصلتهم الشياطين إلى سدة التحكم بمصائر البشرية، من على منابر الدول القابضة على القوة، ومن على منابر الدولة المستكينة لسوط الجلاد الكبير، الذي قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر آية: ٢٩]،﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف آية: ٥٤].. كيف ..؟

- لن يكون ذلك إلا بإتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ والذي نزل به الروح الأمين على قلبه من عند الله.. ولن يكون هذا العود إلا بالجرأة وبانتزاع الخوف من القلوب، ألم يقل الحبيب المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم: أنت ظالم فقد تودع منها» رواه الترمذي. حديث صحيح.

- ويجب أن يكون لذلك الاتباع منهج ومسالك وآليات ووسائل مشروعة

ربانية معتدلة مهتدية، لا تسرّعَ فيها، ولا تتجاوز حدود العدل والاتزان، ولا لجوء فيها إلى العنف والهيمنة؛ بل إن المنهج المطلوب يكون مسربلاً بالحب والحنان والعطف على ضعف الناس وتواضعاتهم، بحيث لا يراد لها أن تقفز قفزاًَ فوق المعوقات.



تحدي الاستدراج

قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام آية: ٤٤- ٤٥]

من أين أتيته وجدت بروق الضياء تشع من جنباته ومن حنايا أحرفه وكلماته، وقابلتك نفحات الهدى تقطر أملاً وتقدماً ورواءً لعطش الأرواح.. إنه القرآن.. كتاب الله سبحانه وتعالى المعجز.. الذي تقصر بحور الخير كلها عن مجاراة خيراته، وتتأخر محيطات البيان كلها عن محاكاة ومجاراة بيانه وبلاغة أثره وفعله.. إنه الصحائف الربانية، يقبس القابس منها ما يروق له من يانع الأفكار وناضج التوجيه، يعلو بها خالص السعي لخير الإنسان، وهذه هي قضيته وسر كدحه في دنياه.

وهنا في هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الأنعام تكمن تجليات فذة من درر الكتاب، تعرض لصورة من صور التربية القرآنية، تستخدم المثل الحي، لبيان أن الحياة الإنسانية ما لم تستقم على ما أراد الله تعالى لها أن تستقيم عليه من شرائع ربانية ومثل سامقة عالية وصور سلوكية مضبوطة بالأمر الرباني فإنها وما تنتجه من تقدم مادي وما تنجزه من نظم وأفكار إلى بوار وخسران، فليس العبرة والاعتبار في مفهوم التربية القرآنية للقوة المادية، وإن كانت هذه إحدى مهمات استخلاف الله عز وجل للإنسان في الأرض، وليس العبرة والاعتبار لمنجزات العلوم والتقدم التقني وإن كانت هذه أيضاً إحدى تلك المهمات المكلف بها الإنسان.. إن ابتعاد القوة المادية والتقدم العلمي والتقني عن روح التكليف الرباني للإنسان القائم على إتباع التنزيل، وغير المنضبط بالقيم والأخلاق والتعاليم الرسالية، يجعل من تلك القوة وذلك التقدم قيمتين غاشمتين ظالمتين تقودان الإنسان ليسير في متاهات الخوف والرعب والقلق الدائم على لحظته القادمة، والحيرة المظلمة التي تسيطر على لحظته الحاضرة، ومن ثم لتنتهي به إلى استدراج رباني تفتح فيه على الإنسان كل الأبواب التي تؤدي به

في النهاية إلى اليأس والانقطاع في دياجير ظلمه لنفسه ولغيره...﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام آية: ٤٤] كل شيء من الترف والنعم والغنى والفتوحات العلمية والقوة العسكرية والغنى المادي والتقنيات المغرقة في الترف والترهل.. ثم ماذا؟﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ .

إن هذا الاستدراج الرباني للإنسان الغافل الذي نسي ذكر ربه ونسي تعاليمه ثم ذُكر بها فمر مستهزئاً مستكبراً متفاخراً بما أوتي فرحاً بما أغدق عليه.. إن هذا الاستدراج لهو بداية النهاية لهذا المخلوق الضعيف، الذي ظن في لحظة غياب أنه مستغن عن الخالق الواهب الذي إليه الرجعى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق آية: ٦- ٨] ألم يمثل رب العزة سبحانه هذا الحال بآيات أخرى كثيرة، تحاول تنبيه الناس أبد الدهر إلى التأمل المعتبر المتعظ بحال الغافلين، الظانين أن ما يغرقون به من نعيم القوة والتقنية والغنى إن هو إلا دليل صحة، يخولهم ظلم الناس والاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم وهوياتهم..؟

ألم يقل رب العزة سبحانه وتعالى موضحاً هذه الصورة بأجلى معانيها في سورة يونس ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس آية: ٢٤] ثم ألم يقل جل وعلا في سورة الروم أن القوة غير المهتدية مآلها إلى حال بئيس وانقطاع حزني ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم آية: ٩].

إن نقطة هامة يجب على المؤمن أن يقف عند مبتدئها ليعي الدرس من هذه الآيات، هذه النقطة والوقوف عندها تقول للمؤمن، كن على يقين ثابت لا يتزعزع، بأن ما تراه من تجمع للقوى غير المهتدية بهدي الإسلام، مبتغية

مواجهة هذا الدين، في عقر داره، تحت مسميات وأقنعة متلونة، وان ما تشهده من تقنيات متقدمة متبرجة بألوان الغدر الثلاثة الأصفر والأحمر والأسود.. إن كل ذلك الذي تراه لا يهولنك ولا يعجبنك ولا يبهرنك، فإن العبرة في القيمة الحقيقية، وليس لهذا الاستعراض الخاوي للحضارة .. إن العبرة والاعتبار في النهاية لمدى ما تحمله القوة والتقدم من قيم الإيمان وتعاليم الإسلام والنور الرباني الهادي إلى خير الإنسان وفائدته وأمنه من هذا التقدم.. إذ إن كل ذلك الاستعراض الجاري اليوم للقوى الخاوية من المعاني الربانية يصدمه في وجوده قول ربنا عز وجل ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ فهذا هو التحدي لاستدراج القوة والغنى والتقانة.

استدراجاً يفتن الغافلين كما استدرج من قبل بعضاً من قوم قارون، الذين بهرهم ما شاهدوه من قوة وغنىً وبهرجات استعرضها ذلك الأفاق أمامهم ولكن هذا الاستعراض كان تنبيهاً لأقوام كانوا صادقين مع الله.. فلم يغرهم ولم يستدرجهم.. بل إنهم كانوا على يقين بأن هذا الاستعراض إن هو إلا لحظة وهمية تسبق المآل الكارثي... فالمؤمن في كل حين وآن متنبه لهذا الاستدراج وهو يعلم اليوم ويحدس بالمآل الذي يجر إليه استدراج الحضارة السائدة اليوم لتلاقي أمامها- ولو بعد حين- جزاء ظلمها لنفسها وللإنسان في جميع أنحاء العالم.. أفلا يتفكرون بما يحيق بهذا العالم من أخطار، راح ينبه إليها العلماء والمفكرون، وهي نتيجة استدراج الغافلين الذين يحاولون استثمار كل شيء بلا أخلاق ولا قيم، ليكرسوا رفاهيتهم وهيمنتهم فرحين بما يُستدرجون إليه من خراب..!



تحدي كلمات في الخطاب الإسلامي



قــال تعــالى:﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء آية: ٨٦].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» رواه الترمذي رحمه الله وقال حديث حسن صحيح.

على حافة الكلمات القدسية ومن كنهها عرفنا (نحن المسلمين) دربنا.. واختزنت ضمائرنا وقلوبنا وعقولنا كل السبل المؤدية إلى الإنسان، وحاولنا ولم نزل توطين هذا الخطاب الفذ، الذي يهل من الكلمات القدسية شغاف قلب العالم، إننا لم نتوهم الدرب، ولم نسلك مسلك من يحلم أن واجب الدنيا بكل ما فيها ومن فيها أن يكونوا مثلنا وسائرين على منهجنا.. وإن كنا نود لو ان ذلك يكون، إننا نزعم أننا نملك خطاباً إنقاذياً للإنسان، وتأتي البراهين كل يوم مؤيدة لزعمنا هذا، وداعمة لفهمنا، لكننا لم نفكر يوماً بأن طريقنا هذا محمول بالإكراه لغيرنا، ولم نتطلب من العالم في خطابنا سوى أن يفسح الناس لكلمات الله مساحة للاستماع، وهم أحرار بعد ذلك في الاختيار. ولكن شرط ان لا يبتدئوننا بالعدوان، وليتركوا أرضنا ومن عليها وما عليها، ليفتح الله بيننا وبين بني قومنا بالحق والسلام.

إن الخطاب الإسلامي مذ كان وحتى اللحظة يرتكز على ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء آية: ٨٦] ويتأسس فوق: «يا أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» ويتزيا بزي قول ربنا جل وعلا:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران آية: ٦٤].

ويتميز بميزة قول الله في كتابه العزيز:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات آية: ١٣] وقد لخص ربعي بن عامر ذلك الخطاب بفهم فذ: إذ قال لكبير الفرس: (الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ولنخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة). والاختيار في ذلك يعود للناس.

وإذن فهو خطاب إنقاذي للإنسان، مسطورة محاوره ومعانيه في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ وفي فهم القادرين على الفهم والاستنباط، ولابد أنه متنقل مع الأجيال المؤمنة، وهو مبني كما دونا آنفاً عل السلام (افشوا السلام) وعلى العطاء والتعايش والتراحم (وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام)، وعلى حسن التواصل مع الله (وصلوا والناس نيام) ومع الناس﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء آية: ٨٦] وعلى التواضع للناس جميعاً كونهم من أصل واحد: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات آية: ١٣] وعلى التعارف والتعاون لا على العدوان والأطماع والغطرسة ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات آية: ١٣] وعلى الكلمة السواء:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾
[آل عمران آية: ٦٤]. وعلى الحوار الهادي والتفاهم البناء غير المسكون بحب السيطرة والاستلاب والإثراء على حساب ممتلكات الآخر:﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران آية: ٦٤]. وعلى العدل القائم على هتاف الآية الكريمة ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد آية: ٢٥].

ولا نعلم أن أحداً من المسلمين خرج على هذا السمت في الخطاب مع الجميع، إلا ما كان من شذوذ من قلة راعها وآلمها ما رأته من عدوان سافر وأليم على شعوب أمة الإسلام، فحاولت الرد إلا أنها لم تهتد إلى سواء السبيل

في هذا الرد، وتبقى هذه الفئة قلة، وليست رؤيتها هي المعتمدة في أساسات الخطاب الإسلامي التي أتينا على ذكرها آنفاً. والسؤال الآن هل بعد هذا الذي بيناه من قواعد الخطاب الإسلامي ومحاوره يحتاج الأمر إلى أن يقرع البعض رؤوسنا ويشغلوا أوقاتنا بطلب مراجعة الخطاب الإسلامي، خصوصاً أنهم يحاولون شرح طلبهم بشكل ينحت لنا مقومات تبتعد بنا عن ثوابت الإسلام وقيمه، ويميلون إلى بعض مقومات لخطاب معادٍ، يحاول دائماً وضع الكرة في مرمانا دون حق؟ ونتبع ذلك بأن نسأل هؤلاء لماذا لا يطالبون الآخرين بمراجعة خطابهم، الذي لا يلائم عصراً، ولا يناسب التعايش والتفاهم، ويبتغي دائماً وأبداً إكراه الناس على تبني مفاهيمهم وقواعدهم الحياتية وخصوصياتهم وأصولهم، التي ثبت قطعاً عدم صلاح الكثير منها في المجتمعات التي أنتجتها، فكيف بها ستكون صالحة في مجتمعات ظل الإسلام هو أرضيتها وأساسها على مدى الزمان؟ وحتى نعطي لكلامنا هذا أرضية عملية، نسوق قولاً أورده الرئيس الجديد باراك أوباما في خطابه الأول: (إن علاقتنا مع العالم الإسلامي ستقوم على المصلحة والاحترام المتبادل) ثم نورد عليه قولنا المأخوذ من خطابنا الإسلامي الذي يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ .

فمرحباً بهذه الروح التي تحمل نفساً جديداً وتعطي استراحة من اللهاث المحموم، الذي سببه تمرين الرئيس الأمريكي المنصرف بوش بخلفياته العدوانية ومواضعاته الظالمة لحقوق الشعوب، وفلسفاته المتخلفة لفهم العالم الإسلامي ونضيف: نعم للمصالح المتبادلة، ونعم للاحترام المتبادل، ولكن على قاعدة التصرف المسكون بالعدل وحسن النوايا، لا على قاعدة أن للقول شكل، وللفعل شكل آخر كما بدا ذلك من بعض إمضاءات أوباما بحق فلسطين وأفغانستان، حيث سيعيدنا ذلك إلى اللهاث من جديد بلافتات نظرية محببة زاهية...!! ونحن في تحديد مصالحنا كأمة نريد أن يسود العدل في النظرة الأمريكية لحل قضايانا جميعها من فلسطين إلى العراق إلى الصومال إلى أفغانستان، العدل الذي تعرفه الشرائع السماوية وتعرفه الشرائع الدولية، لا العدل المخزون في الذاكرة الأمريكية المشحونة بالفكر الصهيوني التلمودي، وبفكر الهيمنة والاستحواذ على ثروات الآخرين.فإذا استوت النوايا الأمريكية على قاعدة العدل السديد، وإذا سلمت تلك النوايا للعرض الأوبامي بالمصلحة والاحترام المتبادلين، فإن امتنا كانت دائماً على استعداد للتبادل وتوظيف القول

بالمبادرة الفعالة، حيث تراعى مصالح أمريكا والغرب بلا إكراه أو ضغوط أو تبعية، وبلا شعار: (الحرب على الإرهاب) الذي أصبح لافتة لإخفاء الظلم والعدوان، وعدّ تدمير الشعوب بالأسلحة الفتاكة دفاعاً عن النفس، وحينئذٍ نبادل أوباما التحية بأحسن منها: فنحن أمة الحوار والتعايش وحب الإنسان، ولنكن جميعاً شركاء في الفعل الآيل للأخذ بيد الإنسان إلى بر الأمان، بعيداً عن صيغة الأسياد والأتباع المقيتة المرفوضة.

تحدي القول الفصل



في اقتران القول بالفعل

قــال تعــالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة آية: ٢٠٤- ٢٠٥].

جرح هنا وتدمير هناك، قتل هنا، وجنازير تحرث الأرض هناك، هتك هنا، وحقوق مقتولة هناك، بيوت تهدم، وأطفال تعدم، مزارع تجرف، وأرض تسرق وثروة تصادر، والوطن تنقض عراه من الأساس، والهوية تستباح من الجذور، إنهم يهلكون الحرث والنسل ويسعون في الأرض بالفساد.. ولكن لافتاتهم تحمل كلمات تنزف من دمنا مستعرضة مفاهيم تقول: بالحرية، بالحقوق، بالنموذج، بالسلام، بالرفاه، بالديمقراطية، وأخيراً (بالشرق الأوسط الكبير...!).

والله جل في علاه أنبأنا منذ أربعة عشر قرناً ونيف بكلماته المعجزات نبأ هؤلاء القوم، وعرفنا بحالهم وفعالهم وغرور مقالهم، وذلك حين قال عز من قائل:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ (فهؤلاء بألسنتهم لهم مشهد معجب، وقول تقر له القلوب، يخاف المرء على نفسه حين سماعه، أهو حقيقة مهذبة، أم خديعة مؤجلة... تملأ القلوب خصاماً، والصدور قتاماً..؟ لكن الاستدراك آتٍ والآيات البينات تفضح مستورهم، وتنشر على الناس حقيقة أقوالهم، إذ يقول رب العزة:﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ .

إنهم يطاردوننا كفرائس مستباحة، يحملون في قسماتهم (عليقاً) يحسبه الغافلون دسماً، فتعمى الأبصار عما في القلوب، وتتبدد الرؤية، فلا ينبهها إلى ما تفعل الأيدي والآلات الفتاكة من دمار، تحاول القسمات واللافتات إخفاءه،

فيضيع بذلك حجم المأساة، ويتهم الذبيح بأنه نظر نظرة غير مرغوبة في وجه الجزار، حيث عُدت تلك النظرة إرهابا.. هكذا﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾ [فاطر آية: ٤٣].

إنهم يقولون في كتبهم ودفاترهم ووسائل إعلامهم غير ما تفعل أيديهم، غير ما ترمي إليه عقولهم وأطماعهم وطموحاتهم الشيطانية، الذاهبة أبداً – وفي العمق – إلى قطع الرحم الإنسانية وإلى الأبد، وذلك في سبيل امتلاك كل شيء، فهم حتى في إبداعهم المادي المدني الهائل دسوا الهمهمات الخبيثة.. يقول د. مصطفى السباعي رحمه الله في مقدمة كتابه: (من روائع حضارتنا كلاماً رائعاً في هذا السياق ننقله بتصرف: (اتخذوا من الوصول إلى الفضاء سبيلاً إلى إنكار وجود الله، واتخذوا من إبداع إنتاج الصواريخ عابرة القارات ذريعة إلى تهديد الأمم والشعوب، لتظل تحت دائرة هيمنتهم، واتخذوا من وسائل الإعلام وسيلة للتضليل، ومن السينما آلة للإغراء والتخريب، ومن المرأة – بذريعة تحريرها – متعة، ومن التقدم الحضاري المدني أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة ونهب خيراتها وإذلال كرامتها وطمس هويتها وشخصيتها ومساهماتها الفذة في المسيرة الإنسانية.

﴿ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [التوبة آية: ٨] وإذن فإنه النفاق في كل شيء، في كل تصرف، في كل عرض من العروض، لهم أحاسيس لا تصدق، ودم أزرق لا يعترف بدم آخر.. يقولون لك إنه ماء وليس دماً كل قول غير قولنا باطل، وكل إنسان غيرنا وهم.. وكل تقديم إنساني غير تقديمنا تخلف وضياع وشهادة زور، كما أنهم في الوقت نفسه الذي يقدمون فيه لنا – على طبق من زخرف – آمالاً عريضة في الحرية، وفي الحقوق، وفي الديمقراطية، وفي التقدم تراهم يتفرجون على قيام يهود بالقرصنة الوحشية في رام الله، إذ يغزون بنوكها وينهبون ما بها من أموال وهم في صدورهم يضحكون فرحاً، وتراهم يحزنون بقسمات وجوههم على مجزرة الكاظمية وكربلاء فإذا انقلبوا إلى أهلهم﴿ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ أن نالوا من فروع المسلمين وجذوعهم، آملين بأن يتحول المشهد إلى ساحة حرب بين المسلمين، فقد حولوا بخبث طوياتهم، ووحشية طموحاتهم كل نأمة فكر أو نظر إلى رمي وحرب ودمار ﴿ وَإِذَا لَقُواْ

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة آية: ١٤] فهم ألد الخصام يسعون في الأرض خراباً، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وصفهم الله بقوله المحكم:﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف آية: ١٠٤].

لقد اكتسوا بالجريمة من قمم رؤوسهم وحتى أخمص أقدامهم، لقد حولوا الصمت على جرائمهم حكمة، وحولوا الهزيمة في الساحات والخنوع لهم إلى اعتدال وفهم وعصرية، فجعلوا من ترهات قذافي وهرطقاته التنازلية نموذجاً سياسياً يحتذى، وكانت رعشات الرئيس الباكستاني بين أيديهم علامات فطنة وهمة، وكان تسليم قيادات فلسطينية ليهود وإعطائهم أكثر مما كانوا يحلمون به بداهات شجاعة فذة.. إن العلم.. كل العلم الذي يعرفه الناس أن هذه المصطلحات المقلوبة الفهم استلت من قانون لا يعرفه الإنسان، فقد وضعت ألفاظه ومعانيه مجامع تلمودية – صليبية، تقطر عيون أصحابها حقداً مسكوناً بالشر، وتنضح بخراب الإنسان، وسحنات الحاضرين فيها تبعث ابتسامات صفراوية، وتمد أذرعاً تبعث بالشهوة والطمع ورسائل دمار في كل اتجاه:﴿ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].. وهم موجودون هناك على أديم الشواطئ الغربية من البحار، يجتمعون أكثر ما يجتمعون في العالم الذي أسموه الحر.. يقوم الأمريكي منهم بالبطش في يد، وباليد الأخرى يحمل أدوات الإجهاز على شخصية الأمة، ويقوم الأوروبي بدور العراب الناعم الملمس لإنفاذ المطلوب، وإقناع من يحتاج إلى إقناع منا بوسائل أخرى.. وكلمات ربنا بين أيدينا تتلى فينا تقول:﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ ﴾ ... فكم نحن مفرطون بحق ربنا ثم بحق أنفسنا حين لا نتعظ بعظة ربنا، الذي نبهنا وينبهنا إلى خلق هؤلاء وطريقة تعاملهم وبعد أقوالهم عن أفعالهم؟!

وكم نحن شاردون عن موقعنا كأمة تحمل كتاب الله العظيم، ذلك الموقع الرفيع الذي أراده الله لنا حين قال جل من قائل:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا

لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة آية: ١٤٣]؟! إن الله عز وجل يريد لنا أن نكون في الموقع الأول، ونحن نتفلت، مع علمنا أن عالم اليوم لا ينقذه من شروره إلا منهج الإسلام.. فهل نفهم ونتعظ وننفذ ما يريده الله لنا بأن نقرن القول بالعمل كي نكون شهداء على الناس، لا مجرد مبهورين بعليقهم السام..؟..

الفهرس